حروب الجيل الرابع ونظرية تدمير النسق الاجتماعي

الأستاذ الدكتور / محمود محمد علي

أستاذ الفلسفة/ جامعة أسيوط



المقدمة

نشـأت حـروب الجيـل الرابـع داخـل مراكـز الأبحـاث الأمريـكية، لتفسير وتبرير الصعوبات التي تواجهها القـوات الأمريـكية وحلفاؤها في مواجهة الحـركات المقاومة (الـتي يصـفونها بالإرهـابيـة)، وتتميـز بأنهـا حـروب غـير نمطيـة، تعتمد علي المعلوماتيـة والقـوي الناعمـة، ومـن حيـث كونهـا حروباً طويلة المدي، تنشب بين الـدول وبـين الجماعـات (مـن غـير الـدول) صـغيرة الحجـم، مرنـة التنظـيم، محـدودة الإمكانيات البشرية والمادية، تستخدم تكتيكات حـروب العصـابات لتحقيـق أهـدافها . والفاعـل الرئيسـي في هـذه الحـرب هو الدول والأنظمـة العالميـة الكـبرى (وعلـي رأسـها الولايات المتحدة الأمريكية)، وذلك في إطـار سـعي الأخـيرة لنشـر الفوضـى وزعزعـة الاسـتقرار في المنطقـة ، بحيـث "تسـتمر في زعامتهـا للعـالم مـن دون معوقـات، ومـن دون أن تضطر لخوض حرب فعلية" (١).

وحروب الجيل الرابع تمر عبر ثلاث مراحل رئيسية ، هي زعزعة استقرار الدولة المستهدفة، والمرحلة الثانية إفشالها، وأخيراً تفكيكها وتقسيمها، وخلق واقع جديد علي الأرض، يخدم مصالح الأنظمة المتداخلة ، وهذا النوع من الحروب تم تطبيقه بنجاح في العديد من الحالات، مثل السودان، وسوريا، والعراق، فضلاً عن أفغانستان زمن الاحتلال السوفيتي؛ حيث تم تصوير المقاومة وقتها علي أنها "نوع من الجهاد ضد المحتل السوفيتي بمساعدة الولايات المتحدة، بينما كان الأمر في حقيقته عبارة عن خطة أمريكية لتحطيم الاتحاد السوفيتي، وإعداد جيل من الجهاديين لنشرهم في كل أنحاء العالم، واستغلالهم في الحرب الأمريكية التالية علي العالم العربي والإسلامي" (٢).

أما عن الوسائل التي تستخدمها الولايات المتحدة وحلفاؤها لتنفيذ هذا المخطط، فبينا بأنها تشمل " الميديا الجديدة"، مثل وسائل التواصل الاجتماعي، والإعلام

الفضائي والالكتروني، ومؤسسات المجتمع المدني، كما تُستخدم في إطار هذا النوع من الحروب "الآليات النفسية، مثل بث الشائعات، ونشر مشاعر الإحباط والغضب علي نطاق واسع، واستثارة الأقليات، وإثارة الحساسيات العرقية والدينية، وتعبئة الشباب بأفكار سلبية ضد الدول العربية ومؤسساتها، ونشر البلبلة والتشكيك في المشروعات القومية، كما يتم توظيف الورقة الدينية من خلال إشعال حروب الفتاوي، فضلاً عن استخدام العملاء الناشطين السياسيين "(٣).

والهدف النهائي من وراء هذا النمط من الحروب هو التقسيم الداخلي للدول المستهدفة، وتفكيكها وإفشالها، وتدعو من ثم المواطنين إلي التكتل خلف قيادتهم السياسية، لكسر وإفشال هذه السيناريوهات عبر التصدي لمثليها في الداخل ، وما يتفرع عنها من تنظيمات إرهابية في الخارج. وفي إطار ذلك اعُتبرت ثورات الربيع العربي البوابة التي تم من خلالها تسريب هذا المخطط، فمن خلال

"إسقاط حكام المنطقة، وخلق جيل جديد من الحكام من الإسلاميين، أصبحت الأمور مرشحة للفوضى؛ حيث فقد الناس ثقتهم في هؤلاء الحكام، ومن ثم توالت الأزمات السياسية ووصلت حالة الاحتقان ذروتها ، وهكذا فإن المؤامرة كانت أمريكية الصنع، محلية التنفيذ" (٤).

وهناك أهداف كثيرة متعددة ومتنوعة لحروب الجيل الرابع، من بينها أهداف سياسية، وأهداف اقتصادية، وأهداف اجتماعية، وأهداف ثقافية، وأهداف أخري كثيرة ومتعددة ، وهي تُشن بمكر ودهاء لفرض تأثيرها وأثرها علي كل شئ ، وهو ما جعل للأهداف طبيعة ارتكازية متمحورة يستفاد من تحققها، وبالتالي تتحول نتائجها لمدخلات جديدة لتحقيق أهداف أخري، وهو ما جعل لتفاعلات اللحظة اعتبارات امتدادية مؤثرة، خاصة في إعداد الدولة المستهدفة لتكون فريسة سهلة لحروب الجيل الرابع ، وهو ما يعطي مدلولاً خاصاً ، إذ إن هناك حدوداً لحركة القوي الفاعلة في حروب الجيل الرابع ، حيث

تنهض وتقوم أجهزة المخابرات بالدور الأكبر منها ، سواء في القيام بالحركة ، أو في تفاعلاتها ، وهو ما يحدد شكل الإرتباط بالأهداف الموضوعة ، حيث تقتضي فواعل المؤامرة السرية استخدام بعض الأدوات والوسائل الاختراقية المؤثرة علي تحقيق أهداف التفتيت والتشتيت والاقتتال بين أبناء الوطن الواحد ، واقتراف الجرائم المتعددة، بما فيها إزالة كيان الدولة، وإحلال الفوضي، وضمان الهروب بالأموال، والمكاسب، والمصالح للخارج .

إن هذا يتم إدراكه وفقاً للطبيعة الخاصة لحروب الجيل الرابع ، حيث إن هناك أنواعاً عديدة من الأهداف ، بعضها طويل الأجل استرتيجي ، وبعضها متوسط الأجل سياسي ، وبعضها لحظي قصير الأجل تكتيكي ، وهي مرتبطة أيضاً بالطبيعة التنفيذية الخاصة لحروب الجيل الرابع ؛ من حيث تحقيق أهداف عامة إجمالية ، أو من حيث تطبيق أهداف خاصة جزئية ، وبالتالي تتحدد طبيعة المشاركة من جانب القوة التنفيذية لتحقيق هذه الأهداف .

لقد ساعدت اتفاقيات الحروب السابقة علي جعل أهدافها محركة ومؤثرة ، خاصة في جني المكاسب والأموال ، وفي الحصول علي هذه الأموال في إطار علاقات ما بعد الحرب ، لكن حروب الجيل الرابع هي حروب تمتاز باتصالها المستمر للحصول علي العوائد والمكاسب والمصالح المستمرة ، حيث تسعي الفرق المتعددة للحصول علي ما يستطيع الوصول إليه ، وتحويله الي الخارج ، خاصة سرقة الموارد الطبيعية، وأموال الشعب وإيداعاته، في البنك المركزي والبنوك الأخري ، وما هو محتفظ به خارج الجهاز المصرفي .

إن هذا يوضح أن الأهداف شاملة ومتكاملة، وهي تعمل علي خدمة هدف رئيسي قائم علي تخطيط ماكر لتحقيق الأهداف .

كما أن لحروب الجيل الرابع أهداف اقتصادية، وسياسية، واجتماعية، وثقافية، وإنسانية، وهي تعمل علي

إحداث أوضاع غريبة وقاسية ، وهـي تعبر عن هـذه العقليـة المجرمـة الـتي دبُـرت وخُططـت لهـذه الحـروب؛ حيـث لكـل حـرب أهـداف اقتصـادية، أهمهـا تعطيـل مسـيرة التنميـة الاقتصادية، وإرهاق وإرباك الـدول الأخـري، وجعلها تترنـح تحـت ضـغوط الفقـر، والعـوز، والإهانـة، والمهانـة، وإزلال الحاجة للعمل، وتعطيل سبل الاستثمار، وجعل الشعب يرزح تحت نيران العطالـة والبطالـة ولا سـبيل أمامـه سـوي حرفـة القتال، والاستيلاء، والغضب، والاجبار علي الخنـوع، وإلا فلا سبيل إلا الموت أو الهجرة، حيث يتم تحقيق ذلـك فضـلاً عن الديون، والمساعدات، والهبات المزلة بشدة.

كمـا أن لحـروب الجيـل الرابـع أهـدافاً سياسـية قائمـة علـي إزالـة كيـان الدولـة، وإلغـاء البرلمـان، وإلغـاء القـوي السياسـية المتواجـدة في الدولـة، وإعـدام وقتـل السياسـيين، وإبعادهم عن مواقع التأثير في الأفراد، وإجبار هؤلاء الأفراد علـي الانصـياع، والتخـاذل، والتنـازل عـن كافـة حقـوقهم السياسية مقابل حق الحياة .

وتعمل حروب الجيل الرابع علي تدمير النسق الاجتماعي السائد، وتفكيك قطاعاته، والارتداد إلي القبيلة، والفُرقة، والتنازع، والتضاد، وإشعال الحروب بين الأشقاء، وجعل النسيج الاجتماعي مهترئاً، ومزعزعاً، ومقطعاً، وجعل زعماء العشائر والقبائل منقطعين، والعمل علي حرمان الأفراد من حقوقهم الاجتماعية، بل وتدمير هذه الحقوق في غيابات عمليات القتل الجماعي والفردي، لإيجاد عقيدة الثأر المتبادل في تدمير كافة العلاقات الثقافية السائدة، ومنع سبل التواصل الثقافي بين أفراد الشعب الذي يصبح صريع ثقافة الإقتتال والثأر المتبادل.

إن هذه الأهداف يُدفع من أجل تحقيقها إعلاميون من جانب عدو عتيد في الإجرام، عدو أدمن استخدام المؤامرة، لتحقيق أهدافه، ونشر ثقافة الاستهلاك، وثقافة المتعة اللحظية، وثقافة الارتزاق، وثقافة التدني إلي درجة إفقاد الحياة والموت للخلاص .

لقد كشف الاستعمار الصهيوني البغيض أن الشعوب ستسعي إلي التقدم، وإلي التنمية الشاملة، وإلي تحقيق معدلات من الغني، وعرف أن سبيلها إلي ذلك هو العلم والإخلاص، وعرف أن اصطياد الخونة، والجواسيس، والعملاء، هو سبيله إلي تدمير الدول الأخري، ولهذا وضعت الدولة الاستعمارية، أهدافاً أساسية لاستبدال الغزو المسلح بالتسلل الجرثومي للداخل، وعرف أن استخدام منهج التفتيت لتقسيم الدول الأخري إلي أجزاء، وإلي أقسام، وإلي دويلات، واستخدام التشتيت للعلماء ولأبناء الدول الأخري، واصطياد الخونة والجواسيس والعلماء لحرب الاقتتال بين أفراد الوطن الواحد سوف يحقق لها هدفها ، وهو سرقة هذه الأموال، وسرقة الشعوب، وسرقة مواردها، وإمكانياتها، والفوز بغنيمة كاملة ، إنها حرب المؤامرة الكبري، والتي خطط لها الاستعمار الصهيوني، وقام باستخدام الخونة والجواسيس للتمهيد لها .

وقد لخصت سلسلة وثائقية أذاعها التلفزيون المصري الرسمي (علي قناتيه الأولي والفضائية) هذه الرواية علي نحو تفصيلي (٥) ، باستخدام عناوين من نوعية " المؤامرة الشيطانية" ، الأيدي الخبيثة"، " قطار الربيع العربي والسائق الخفي" ، واستخدم معدو هذه السلسلة ديباجة تتحدث عن رغبة قوي الهيمنة العالمية عبر التاريخ في السيطرة علي هذه المنطقة من العالم، ووضعوا الأحداث التي شهدتها البلاد منذ نشوب ثورات الربيع العربي في إطار من الملاحم التاريخية، مفترضين أن المنطقة تخضع حالياً لهجمات مشابهة لما تعرضت له من قبل علي يد الهكسوس، والفرس، والرومان، والمغول، والصليبين، وقوى الاستعمار الحديث، وافترض معدو الحلقات أن مصير المنطقة رهن بيد مصر، إذ " لم تتمكن قوي الشر العالمية في الماضي من بسط سيطرتها علي المنطقة، إلا عندما كانت مصر في أضعف أحوالها، ولكن متي استردت وعيها واستيقظت، وفشلت المؤامرات واندحر الأعداء" (٦).

الخط الناظم لهذه السردية يتمثل في ذلك التصور الشمولي للتاريخ، والذي يرويه بوصفه قصة واحدة كبري، في إطار من الإحساس المتضخم بالقومية التي تبالغ في تصور حجم التأثير الذي يمكن أن تمارسه دولة واحدة في إطار التاريخ العالمي. ففي إطار هذا الطرح تم تصوير مصر علي "أنها الدولة المقدر لها دحر قوي الشر وإعادة مسار التاريخ إلي وضعه الصحيح، فهي قادرة علي إلهام جيرانها من العرب والعالم، قيم الحق والخير، ومساعدتهم في التغلب علي المؤامرة الشيطانية ضد الحضارة والمدنية" (٧).

أما عن عناصر هذه المؤامرة إذ تشمل : "الماسونيين من أصحاب الخطط السرية للسيطرة علي العالم، ومنظري الحرب الكبري لإسقاط كل الأديان وعبدة الشيطان، والنورانيين الساعين إلي تكوين الحكومة العالمية، كما تتنوع أسماء أبطال محور الشر المتآمرين، إذ تشمل كل من نيتشه، وهتلر، وكيسنجر، وبرنارد لويس، وكذا تتعدد

المـذاهب السياسـية والايـديولوجيات، لتضـم كـلاً مـن الفاشية، والنازية، والشيوعية" (٨).

استخدم معدو السلسلة حبكة ضعيفة الإحكام للربط بـين كافـة هـذه المفـردات والعناصـر، فالماسـونية العالميـة خططـت للإطاحـة بحكـم القياصـرة في روسـيا تمهيـداً للشيوعية، التي أنيط بها تحطيم الحكومات والمعتقدات الروحيـة، ثـم جـري التخطيط علـي نحـو مـا للحـرب العالميـة الثانيـة للقضـاء علـي النازيـة، وتمكنـت الصـهيونية بـنفس الطريقة الغامضة، حيث تم التخطيط للحرب الكونية التي عرفت بـالحرب البـاردة، والـتي مكنـت المـارد الأحمـر مـن الصعود، قبل أن يتم تصويره كخطر علي العـالم العربـي، وعنـد نقطـة معينـة تم تحجـيم المـارد الأحمـر ، خوفـاً مـن انضـمام دول جديـدة لـه ، "وكـان رجـل هـذه الخطـوة هـو " جورباتشـوف" . وأخـيراً تحققـت للغـرب الهيمنـة الصـريحة، بخروج أمريكـا مـن عزلتهـا وقيادتهـا للعـالم، ولتنفيـذ هـذا الغرض تم إنشاء " منظمة الثقافة العالمية الحرة" ، التي تقوم

علي القيم الأخلاقية والثقافة وتغيير السلوك، ونشر قيم السوق الاستهلاكي، ونشر الفنون والآداب الغربية لاختراق الشعوب، وقد تضمنت منظمة الثقافة العالمية في عضويتها - وفقاً للسلسلة الوثائقية - كلاً من هنري كيسنجر، ورونالد ريجان، وبرتراندرسل" (٩).

وتفترض السلسلة أنه بعد تراجع الهجمة الاستعمارية العالمية، انتقلت الدول الاستعمارية إلي آليات جديدة، للسيطرة علي الدول ذات الموارد المادية والاستراتيجية، وفي مقدمتها الدول العربية، وتستعرض الحلقات في هذا الإطار" الوثيقة الخطيرة" المنسوبة إلي المستشرق "برنارد لويس" لتفتيت العالم العربي إلي " دويلات علي أسس العرق والدين، وتقسيم مصر إلي خمس دويلات، وجعل إسرائيل هي السيد المطاع، كما تفضح الحلقات المتعاونين مع برنارد لويس، مثل "صامويل هانتجتون"، و"فرانسيس فوكوياما"، و"رجب طيب أردوغان"، ودولة قطر وقناة الجزيرة " (١٠).

أما عن أدوات المؤامرة فمتعددة، فهناك الإنترنت واليوتيوب الذي يمثل الإعلام الجديد، وهناك أيضاً القائمون علي مواقع التواصل الاجتماعي، القادرون علي حشد الشباب، "وهناك مؤسسات المجتمع المدني، وفي مقدمتها المعهد الديمقراطي، والمعهد الجمهوري، ومعهد كارينجي، وفريدوم هاوس، وغيرها. ولا تنسي الحلقات أن تشير علي استحياء إلي دور الأنظمة العربية المستبدة التي ساهمت في تردي الأوضاع المعيشية، وانتشار البطالة، والجهل، وقمع الحريات، وهو ما أدي إلي سقوط بعضها، مثل أنظمة ليبيا واليمن" (١١).

وفي محاولتها الإجابة عن سؤال: هل كان وراء الثورات أشخاص طبيعيون أو جهات ما ؟ ، تفترض الحلقات أن مواقع التواصل الاجتماعي، كانت إحدي أدوات الحرب النفسية التي أدت لنشوب، مثل هذه الثورات. وتخص بالذكر صفحة " كلنا خالد سعيد" التي لعبت دوراً كبيراً في الحشد والترويج لثورة الخامس والعشرين من يناير عام

٢٠١١ ، مـع التأكيـد علـي أن أحـد أفـراد جماعـة الإخـوان المسلمين كان هو المؤسس لهذه الصفحة ، كما تشير لموقع رصـد ، الـذي تصـفه بأنـه " مـارس كـل أنـواع التضـليل، واستخدام لقطـات مفبركـة، لقتلـي وجرحـي ومصـابين مـن اليمن، وغزة، والمغرب، لتهييج الجمهور ، ومحاولة شـيطنة أجهزة الدولة، والإيقاع بين الدولة والشعب" (١٢).

وبشـكل عـام يتفـق منظـرو حـروب الجيـل الرابـع مـع الطـرح الـذي يعتقـد بتراجـع " الدولـة القوميـة " ، وخصوصـاً في إطـار منظومـة دول العـالم الثالـث، أو أنظمـة مـا بعـد الاسـتعمار . ومـن بـين الأسـباب الـتي تُطـرح لتفسـير ذلـك التخصـص تختـار النظريـة ذلـك المتعلـق يتعثـر التحـديث في العديد من هذه الدول ، الأمر الذي أفرز "عدداً من الأنظمة الفاشـلة الـتي لم تسـتطع أن تفـي بمتطلبـات وشـروط الدولـة الحديثة، وخصوصاً ما يتعلق بشرط المواطنة، فهذه الأنظمة لم تـنجح في أن تقـدم لشـعوبها مـن الحقـوق والامتيـازات مـا تستحوذ به علي ولائهم السياسي ، ولم تنجح في جعل رابطة

المواطنة تعلو علي غيرها من الروابط ، ما أدي إلي تراجع الولاء السياسي للأفراد إلي الدوائر الأولية (ما قبل السياسة) ، مثل الدوائر الدينية ، والعرقية، والعشائرية. وهكذا لم تعد المواطنة هي قوة الجذب المركزي ، كما كان الحال إبان نشأة دولة ما بعد الاستقلال ، وإنما أصبحت ثمة مراكز جذب أخري ، تتمثل في الدين والعرق والعشيرة" (١٣).

ومما سهل من عمليات " الجذب" في مواجهة عمليات " الطرد" تنامي وسائل الاتصال وتبادل المعلومات بين الأفراد بعيداً عن أعين الأنظمة ، بحيث أصبح "في مقدور الأفراد أن يجدوا المتشابهين معهم مهما تناءت بهم السبل، ليشكلوا معاً تكوينات لا تخضع لسلطة الدولة ولا لسيادتها ، بل ويمارس (بعضها) العنف ضد الدولة ، في إطار فواعل جديدة من غير الدول ، تزاحم الدول في صلاحيتها وتوجه لها تهديداً عسكرياً ووجودياً في بعض الأحيان" (١٤) .

وعلي هذا الأساس تفترض النظرية أن الدولة الحديثة قد فقدت – ضمن ما فقدت – احتكارها لقرار الحرب ، وأصبحت مضطرة للدخول في مواجهات، أو حروب ضد تكوينات غير نظامية، منتشرة عبر العالم، تستخدم إلي جانب " قوة السلاح" ، وسائل " القوة الناعمة، وعلي رأسها المعلومات، وتتمتع بالمقدرة علي شن حروب، " لا تستهدف من خلالها هزيمة خصومها عسكرياً ، ولكن تحطيم إرادتهم السياسية، وإقناعهم بعدم جدوي الاستمرار في مواجهة هذه التكوينات المقاتلة، وهو ما تحقق فعلياً في العديد من الحالات" (١٥).

ففي الوقت الذي لم تتمكن فيه أي دولة عادية من أن تحارب، فضلاً عن أن توقع الهزيمة بأي من الدول الكبرى في إطار النظام الدولي المعاصر، فإنه من خلال هذا النوع من الحروب ذاق عدد من هذه الدول الهزيمة علي يد جماعات أضعف منها بالمقاييس التقليدية للقوة، فتعرضت أمريكا للهزيمة (وفقاً لتعريف النظرية لمفهوم الهزيمة) في

كل من فيتنام، ولبنان، والصومال، وأفغانستان، والعراق. كما تعرضت القوات الفرنسية للهزيمة في كل من فيتنام، والجزائر، وتعرض الروس للهزيمة في أفغانستان، ثم لانكسارات خطيرة في الشيشان. الأمر الذي يعكس وفقاً للنظرية تغيراً في علاقات القوة ، وفي الطريقة التي بات "يُنظر من خلالها إلي كيفية إحراز النصر، ففي كل هذه الأمثلة تمكن الطرف الأضعف، من إجبار الطرف الأقوى علي العدول عن هدفه، وإقناعه (قسراً) بعدم جدوي الاستمرار في محاولة تحقيقه، وفيما لا يمثل هذا انتصاراً وفقاً للمعني التقليدي، فإنه علي الأقل يمثل غلبة لكفة الطرف الذي تبني هذا النوع من الاستراتيجيات" (١٦).

ومن هذا المنطلق نبرز في هذا الكتاب ، دور القوة الناعمة في تأجيج حروب الجيل الرابع ، وكيف أضحي الجيل الرابع من الحروب، يمثل جيلاً يختلف بنيوياً عن الحروب السابقة، حيث "تنتهي معه الحروب بشكلها التقليدي التي كانت تعبُر فيها الجيوش النظامية إلى الدول

المعادية للسيطرة عليها أو على جزء منها، عنوان هذا الجيل واستراتيجيته هو "إفشال الدولة" "(١٧).

كما نبين في هذا الكتاب أيضاً كيف كشف البروفيسور الأمريكي ماكس ماينورج الأستاذ الباحث في الاستراتيجية العسكرية الأمريكية، الذي خدم في المخابرات العسكرية الأمريكية وفي قيادة الجيش الأمريكي، أسرار هذا الجيل الرابع من الحروب، في المحاضرة التي ألقاها في ندوة بمعهد دراسات الأمن القومي الصهيوني بمناسبة المؤتمر السنوي لأمن نصف الأرض الغربي في أغسطس ٢٠١٢، حيث يستعرض أهم مقومات هذا الجيل الجديد من الحروب.

وقد تناول "ماينورج"، مفهوم حروب الجيل الرابع عام ١٩٨٩، وبحسب ما رآه فإن زمن الحروب التقليدية التي تعتمد على الجيوش انتهى، والآن هو زمن الجيل الرابع من الحروب الذي يهدف إلى إرباك الدول من الداخل، وإحداث

اضطرابات متواصلة بها، لدرجة تدفعها دفعاً إلى مرحلة الدولة الفاشلة، التي يسهل السيطرة عليها من أي جهة داخلية تخدم مصالح الجهة المحركة خارجياً وتحقق أهدافها، وهو الاحتمال الأقرب للتصور والقابل للتنفيذ، أو تتم السيطرة عبر الأطراف الخارجية بشكل مباشر، وهو الاحتمال الأضعف في ظل بيئة النظام العالمي السائدة حالياً.

ومن هذا المنطلق ندرس في هذا الكتاب الفصول التالية :

الفصل التالية

القوة الناعمة ودورها في تأجيج حروب الجيل الرابع

في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضي وحتى الآن، شهد العالم ما يطلق عليها النظام الدولي الجديد وأخيراً العولمة ، وتعود بدايات شيوع هذا المفهوم إلى حرب الخليج الثانية (١٩٩٠)؛ حيث بدأت الدعاية الأمريكية بالترويج لهذا المفهوم رغم وجود محاولات سابقة في هذا المجال .

لقد اتجه النظام الدولي خلال هذه المرحلة نحو أحادية القطبية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ، وظهور الولايات المتحدة كقائد للمعسكر الرأسمالي المنفردة بقيادة العالم ، وتمدد دورها وهيمنتها على الأمم المتحدة والشرعية الدولية. وقد شهدت هذه المرحلة زيادة عدد الدول نتيجة الانقسامات والانشقاقات التي حدثت في كثير من الدول، وفي الوقت نفسه يشير النظام خلال هذه المرحلة إلى أنماط تفاعلات جديدة تركز على الجوانب الثقافية والحضارية

وتوزيع مصادر القوة والنفوذ بصورة جديدة تعطي دوراً أكبر للمنظمات غير الحكومية، مما جعل البعض يطلق عليه اسم "النظام العالمي الجديد" بدلاً من "النظام الدولي الجديد".

وارتبطت هذه المرحلة بمجموعة من القيم والمبادئ الأخلاقية والإنسانية، مثل الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، واحترام قواعد القانون الدولي، وإعلاء الشرعية الدولية، وتسوية المنازعات بالطرق السلمية.

وشهدت السنوات الأخيرة من عقد التسعينيات، شيوع مفهوم العولمة الذي ارتبط بأحداث الثورة الصناعية الثالثة، والطفرة الهائلة في وسائل وتكنولوجيا الاتصال. ويشير مفهوم العولمة إلى جملة التغيرات الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية التي تمتد تفاعلاتها لتشمل معظم دول العالم، وهي تعبر عن مرحلة تاريخية جوهرها زيادة التداخل والترابط بين مناطق العالم، مما أدى إلى تراجع أهمية

الحدود وسيادة الدولة في ظل تعدد الظواهر التي تتخطى هذه الحدود.

وقد عكست هذه المرحلة تعدد وتنوع المشكلات والتحديات التي تواجه الدول؛ خاصة في نصف الكرة الجنوبي وما رافقها من تنامي اتجاهات التطرف، والصراعات الداخلية، وظهور أنماط من التصادمات، والاحتكاكات في النظام القيمي والفكري. ويرتبط مفهوم العولمة بهيمنة النشاط الاقتصادي الرأسمالي، وتحول العالم إلى سوق استهلاكية كبرى لمنتجات الشركات الصناعية الكبرى. أما في المجال الثقافي فالأمر يظهر وكأنه انتصار لثقافة الشمال المتقدم على الجنوب المتخلف، وفرض الذوق والثقافة الأمريكية والغربية على العالم.

وفي هذا السياق، اختلف الباحثون في العلاقات الدولية، حول تحديد مكانة القوة، ودورها في السياسة

الخارجية ، وبرزت الاتجاهات النظرية التي تركز علي "دور القوة وتفاعلاتها مع هيكل النظام الدولي، وخاصة بعد انهيار القطبية الثنائية بسقوط الاتحاد السوفيتي، وصعود الولايات المتحدة الأمريكية قطباً وحيداً في بنية النظام الدولي ، الواقع الذي لم يحدث من قبل في أن يصبح النظام الدولي أحادياً " (١٨).

فقد خرجت الولايات المتحدة الأمريكية من الحرب الباردة ، كقوة عظمي ومنفردة بشؤون العالم ، وباتت بعد حروب الخليج مضطلعة فعلياً بقيادة الوضع العالمي، لذلك أصبح النموذج الأمريكي المعولم، وبفعل القوة الشاملة، حاضراً بقوة في مختلف أرجاء العالم، وخاصة أن القوة الأمريكية لم تزعزع النظام الدولي، بل ساهمت في إنشائه تاريخياً عبر استراتيجيتين، الأولي واقعية تدور حول الاحتواء والحفاظ علي ميزان القوة الدولي، وهذا ما أنتج مجموعة من المؤسسات الدولية. أما الاستراتيجية الأخري فهي ليبرالية، سعت لبناء نظام دولي، وأسست علاقات

سياسية قائمة علي اقتصاديات السوق المتكاملة وصياغة القواعد لحماية المصالح الأمريكية، واعتمدت الولايات المتحدة فيهما علي القوة الناعمة لتحقيق مصالحها. ولتبرز بوصول جورج بوش الابن إلي استراتيجية تقوم علي الالتزام بالحفاظ علي عالم أحادي القطبية، وذلك " عبر امتلاكها القوة الشاملة، بحيث تمنع منافسين لها من الظهور علي المسرح الدولي ، والانتقال باستخدام القوة من الردع إلي الاستخدام الوقائي وحتي الاستباقي لمواجهة التحديات الجديدة المتمثلة بـ" الإرهاب" والاستعداد للتدخل في أي مكان، أي إعادة بلورة مفهوم السيادة وفق المصالح الأمريكية، وعدم الوقوف عند القانون الدولي والمعاهدات والرد المباشر علي التهديدات وإلغاء هدف الاستقرار الدولي، باعتمادها علي القوة الصلبة ، وتزامن ذلك مع سيادة الرأسمالية ، وعدم الاعتراف بأدوار الفاعلين الآخرين، ومحاولة إخضاع جميع التفاعلات الدولية لأسلوب

حتميـــة المـــرور بـــالمركز المتمثـــل في الولايـــات المتحـــدة الأمريكية" (١٩).

هذا ما حول الاستراتيجية الأمريكية إلي استراتيجية إمبريالية جديدة ، والتي دفعت ، نتيجة" استخدامها للقوة غير الشرعية وغير المبالية بالشرعية الدولية ، واختيارها الوسائل المختلفة لتحقيق أهدافها ، إلي خلق نظام أكثرعدائية والتعرض لخطر رد الفعل، المقاومة مثلاً، أو نشوء تحالفات معادية " (٢٠).

وهذا ما أدي إلي تطويق الولايات المتحدة ذاتها بذاتها ، وزاد من صعوبة تحقيق مصالحها ، وخاصة بزيادة التكاليف والالتزامات علي دورها ، وجعل الجدل يتنامي في دوائرها الرسمية حول أي خيار من خيارات القوة الصلبة، أم الناعمة، أم الذكية، وجعلها " تبدأ بالاعتماد بشكل أكبر من الأوقات السابقة ، علي خيار القوة الناعمة الذي يساهم في التخفيف من حدة عداء للولايات

المتحدة في العالم ، وفي الوقت ذاته يضمن تحقيق مصالحها دون استخدام القوة الصلبة انطلاقا من الحقيقة السابقة في الارتفاع النسبي لتكاليف استخدام القوة العسكرية " (٢١).

وبعد انتهاء الفترة الرئاسية لجورج بوش (الابن)، وما خلفته الآلة العسكرية الأمريكية من قتل ودمار في بقاع مختلفة من العالم، وفي مناخ التراجع الحاد لسمعة الولايات المتحدة الأمريكية في المحافل الدولية إثر ما قدمته للإنسانية من موت وتشرد وإعاقة في أفغانستان والعراق، عادت السياسة الأمريكية إلى الساحة الدولية بوجه جديد ، يخاطب العالم الإسلامي بوصفه عالماً جديراً بالاحترام والثقة ! إنه وجه "باراك أوباما". انتُخب أوباما ليوحي بتغير ما في سياسة أمريكا الخارجية، فأطلق رئيسها الجديد "الصورة الإيجابية الخادعة لسياسة لم تغير في أهدافها بقدر ما غيرت في نهج تحاول لغاية الآن تفحص مدى أهليته لبناء الإمبراطورية الأمريكية المستندة إلى القوة الناعمة " (٢٢).

وانعكست التحولات السياسية الأمريكية بداية في مشهد الخطاب السياسي الهادف بصورة ما إلى كسب معركة في خانة التأثير الثقافي، ومحاولة السيطرة مجدداً على عقول وقلوب المسلمين. ففي الخطاب المحدث، " يتم اختيار المفردات التي تعنى بالسلام، ومحو الظلام، وبناء كوكب الأرض عبر استخدام الطاقة الآمنة. وفي عناوين الخطاب الجديد منعطفات يصعب تصديقها حول بناء شراكات جديدة مزعومة مع شعوب البلدان النامية، التي أغدق عليها بالوعود المتعلقة ، بنشر التعليم، وتحقيق الديمقراطية، والعدالة الدولية ! أي جملة الأساليب التي تدعو إلى ترجيح كفة سياسة القوة الناعمة، وتجنب استخدام القوة العسكرية الصلبة لحل الصراعات الدولية، أو الدفاع عن المصالح الأمريكية - الدولية إذا صح التعبير، فقد حدثت أثناء ولاية جورج بوش فجوة واسعة طالت كيفية النظر إلى أمريكا من خلال شعبها، وكيفية نظر بلدان العالم غير الأمريكي لها، إذ حاول الرئيس

أوباما عبور هذه الفجوة من خلال فكرة القوة الناعمة التي نادي بها جوزيف ناي" (٢٣).

فإذا ما رجعنا إلي عام ١٩٩٠ نجد أن جوزيف ناي قد أطلق تعريفًا لمفهوم القوة الناعمة، قال فيه " إنها القدرة على تشكيل تصورات الآخرين، وهي "الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبية بدلاً عن الإرغام أو دفع الأموال. وتنشأ القوة الناعمة من الجاذبية الثقافية لبلد ما، والمثل السياسية التي يحملها، والسياسات التي ينتهجها في الواقع، وعندما تبدو السياسات الأمريكية مشروعة بنظر الآخرين تتسع القوة الناعمة الأمريكية. وعندما نجعل الآخرين يعجبون بالمُثل التي نؤمن بها، ونجعلهم يريدون ما نريد فإننا لن نضطر إلى الإنفاق كثيراً على موارد السياسات التقليدية ؛ أي على عوامل الإرغام العسكري والإغراء الاقتصادي. ومن أهم المثل الأمريكية التي لها قدرة على تحريك وجذب الآخرين نحوا الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وإتاحة الفرص للأفراد" (٢٤).

والقـوة الناعمـة هـذه ضـرورية للـدول "الديمقراطيـة" المضطرة إلى الإقناع بدلاً من القسر، فهي لهذا عنصر ثابت في السياسـة الديمقراطيـة... (الـتي تعتمـد مـثلاً) الشخصـية الجذابة، الثقافة، المؤسسات والقيم السياسية، السياسـات الـتي يراهـا الآخـرون مشـروعة أو ذات سـلطة معنويـة أو أخلاقيـة.. (وهـي) "أكثـر مـن مجـرد الإقنـاع أو القـدرة علـى استمالة النـاس بالحجـة، هـي أيضـاً القـدرة علـى الجـذب، والجذب كثيراً ما يؤدي إلى الإذعان" (٢٥).

وأضاف جوزيف ناي أن القوة تنقسم إلى ثلاثة أشـكال وأنواع "القوة الاقتصادية، والقوة الصلبة العسـكرية، والقوة الناعمـة" وعلـى هـذا الأسـاس فـالقوة الصـلبة لا تنفصـل عـن القـوة الناعمـة والقـوة الاقتصـادية، فهـذه القـوى الـثلاث تشـكل أبعاد وزوايـا القـوة، والتفـوق، والهيمنـة، والسـيطرة في السياسـة الدوليـة. وينبغـي لمـن يتصـدى للعمـل في الاسـتراتيجيات والسياسـات الدوليـة أن يعـرف أن "جـدول أعمال السياسة العالمية قد أصبح اليوم، مثل لعبة الشطرنج

ثلاثيـة الأبعـاد لا يمكـن الفـوز بهـا ، إلا إذا لُعبـت بطريقـة عمودية وأفقية" ، ومشكلة بعض اللاعبين والزعماء أنهم لا يستطيعون اللعب إلا في اتجاه أو بعد واحد – أي إما إعلان وشن الحروب العسكرية أو فرض العقوبات الاقتصادية" (٢٦).

وتابع ناي يقول "إن سياق القوة قد تغير بفعل عوامل لها صلة بالعولمة، وانتشار وسائل الإعلام ، والاتصال والمعلومات، ويقظة المشاعر القومية والإقليمية، وعدم ردعية السلاح النووي، وضمور وضعف شهوة الغزو والاستعمار العسكري لدى الدول الكبرى، ما أدى إلى تغير وتبدل في أشكال القوة، لأن معادلات القوة لا تعمل إلا في السياق والإطار الذي توجد فيه علاقات وموازين القوة؛ فالدبابة لا تصلح لحرب المستنقعات والغابات، والصاروخ والمدفعية لا يصلحان لجذب وكسب الآخرين. ومن ناحية أخرى القوة الناعمة هي الأكفأ والأفعل في عالم اليوم على توفير القدرة على التأثير في سلوك الآخرين للحصول على النتائج

والأهداف المتوخاة، بدون الاضطرار إلى الاستعمال المفرط للعوامل والوسائل العسكرية والصلبة، وهي الأقدر على تشكيل تفضيلات وخيارات الآخرين وجدول أعمال الآخرين السياسي، وكل دولار يُصرف في مجالات القوة الناعمة أفضل وأجدى بأضعاف من صرف ١٠٠ في مجالات القوة الصلبة" (٢٧).

وحتى تستطيع القوة الناعمة تحقيق أغراضها، لا بد لها من قبول المتلقي، وقبول المتلقي يرتبط بأن يطرح له ما يرغب به، فعندها نقيس القوة بمعايير تغيير سلوك الآخرين، فإن علينا أن نعرف أولاً ما هي الأشياء التي يفضلونها، وإلا فسنكون مخطئين في معرفة قوتنا. لكن إذا تعارض ما يرغب به المتلقي مع ما يريده المرسل (صاحب القوة) فما الحل؟ إن الحل هو بالتأثير لتغيير القناعات والمطالب وما يفضَّل. من هنا كانت ضرورة استخدام الأدوات المؤثرة، " وهذه الأدوات يمكن أن تكون وسائل الإعلام، أو الشركات التي تقدم برامج معينة، أو إقامة

العلاقـات الشخصـية مـع أفـراد وجماعـات أساسـيين، أو الوسـائل المخابراتيـة، أو التمويـل السـري للحفـاظ علـى السيطرة، فالمؤسسات الإذاعية والتلفزيونية التي يستخدمها الأمريكيون لنشر الأخبار بلغة المتلقي، والموسيقى الشعبية المحببة، واستخدام الوسائل الإعلامية التي ينشؤها الآخرون ،هـي خطـوة في الاتجـاه الصـحيح. وكـذلك فـإن إنشـاء مكاتب الدعاية، لا سيما عندما يستطيع المرسلون إلهام أحلام الآخرين ورغباتهم بفضل إتقانهم للصور العالمية، عن طريق الأفلام والتلفزيون ، فهذا من الأشياء الأساسية" .

والولايـات المتحـدة هـي الدولـة الأقـوي عسـكرياً واقتصادياً ، ولكن ذلك لم يكن كافياً كما يقول ناي ، لمنع اختراق أمنها ، كما حدث في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ، ولا يمكن للولايات المتحدة الأمريكية منفردة أن تنهـي تنظـيم تحديـد القاعـدة وعناصـرها المنتشـره حـول العـالم، ولا يمكنهـا شـن حـرب علـي الإرهـاب مـن دون مسـاندة دول أخـري، علـي الـرغم مـن قوتهـا العسـكرية

الساحقة. لقد تمكنت الولايات المتحدة من إزالة صدام حسين، لكنها لم تنه خطر الإرهاب، والطريقة التي تتبعها في حربها المستمرة في العراق أضرت بصورتها في العالم، حيث ألحقت أضراراً كبيرة بوسائل القوة الناعمة التي تمتلكها بصورة تفوق الخسائر العسكرية المتعاظمة.

ويحلل جوزيف ناي الطبيعة المتغيرة للقوة في العالم المعاصر، وما فرضته التطورات التكنولوجية من تحول في طبيعة التهديدات وتأثيرها، ومن ثم أساليب مواجهتها. لقد منحت التكنولوجيا المتطورة فرصة تطوير الأسلحة النووية، وهي أداة ردع شديدة الفاعلية، لكنها تكلف غالياً في حال استخدامها فعلياً؛ كذلك فإن تطورات تكنولوجيا الاتصالات أدت إلي إنتشار الأفكار القومية، وانتصار حركات الاستقلال علي الرغم من حقيقة التفوق العسكري لقوات الاحتلال. ولا يعني ذلك أن "استخدام القوة العسكرية لم يعد مطروحاً، بل إنه يصبح حتمياً في بعض الحالات، حتي مع ارتفاع تكلفته ، كما هي حال

حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ ، والحرب علي العراق عام ٢٠٠٣ " (٢٨).

وتمثل ظاهرة الإرهاب تطوراً جديداً لمفهوم القوة، فقد أصبحت التنظيمات الإرهابية أكثر قدرة علي تنفيذ عمليات كبيرة، وتبادل المعلومات بصورة يصعب تعقبها ، وتغيير هياكلها التنظيمية، وتحولت مطالبها من مجرد مطالب سياسية محلية إلي نطاق عالمي. وهذه الطبيعة الجديدة تجعل القوة العسكرية وحدها عاجزة عن خوض المعركة ضدها بنجاح.

كما يؤكد جوزيف ناي أن إدارة بوش تهمل القوة الناعمة في حربها علي الإرهاب، بل إن بعض شخصياتها البارزة ، مثل " رامسفيلد" لا يعرفون معناها . ويشبه ناي أجندة السياسات الدولية برقعة شطرنج ثلاثية الأبعاد ، أفقياً ، ورأسياً ، ومحورياً ، وهي تقابل أبعاد القوة العسكرية، والاقتصادية، والثقافية . والولايات المتحدة

تمتلك تفوقاً عسكرياً ساحقاً، لكنها لا تتمتع بالتفوق المطلق في البعد الاقتصادي، إذ تلقي منافسة من عدد من الأطراف كالاتحاد الأوربي والصين واليابان، والأمر أكثر وضوحاً في البعد الثقافي، حيث توجد أطراف أخري كثيرة، مثل الإرهاب، والجريمة العابرة للحدود، والمنظمات غير الحكومية. إن إهمال البعد الثالث للقوة يجعل الولايات المتحدة كلاعب الشطرنج الذي يلعب افقياً ورأسياً فقط دون الاهتمام بالبعد المحوري .

وترتكز القوة الناعمة لبلد من البلدان كما يقول ناى فى كتابه على ثلاثة موارد: الأول ثقافته عندما تكون لها الجاذبية في الأماكن الأخرى غير بلدها. والثانى قيمه السياسية بشرط تطبيقها بإخلاص.. فالديموقراطية والتعددية قيمتان سياسيتان لا يمكن أن تؤثرا فى الآخرين لو أن البلد الذى يطبقها لا ينفذها بإخلاص وشفافية. والمورد الثالث هو السياسة الخارجية، عندما تكون مشروعة وذات سلطة معنوية وأخلاقية.

ويفصل جوزيف ناي ذلك علي النحو التالي (٢٩):

أ - الثقافة: وهي القيم والممارسات التي تضفي معنى ما على أي مجتمع، وتتجسد في الأدب والفن والإعلام. تمتلك الولايات المتحدة نفوذاً وتأثيراً في عالمنا الراهن مستفيدة من شيوع اللغة الإنجليزية، سواء في لغة التخاطب اليومي، أم لغة التجارة والأعمال، وهناك اليوم عشرات الملايين، إن لم نقل مئات الملايين من البشر يأكلون ويلبسون على الطراز الأمريكي، ويستمعون الأغاني الأمريكية ويشاهدون الأفلام الأمريكية. كما أن هناك اليوم مئات الملايين من البشر ممن يستخدمون الحواسيب والبرمجيات الإلكترونية الأمريكية، ويتكلمون الإنجليزية باعتبارها لغة التقنيات والأعمال وتداول العملة، هذا دون أن نتحدث عمن يقرؤون الآداب ويطلعون على الأفكار ويتابعون الصحف والمجلات ووسائل الإعلام الأمريكية. وبالتالي، فإذا كانت القوة الصلبة تنبع أساساً من القدرات العسكرية والاقتصادية، فإن القوة الناعمة تتأتى من جاذبية النموذج، وما يمتلكه

من قدرة التأثير والإغراء للنخب والجمهور على السواء. فحينما تبدو السياسة الأمريكية مقبولة ومشروعة في أعين الآخرين، على ما يؤكد ناي، يتعاظم دور القوة الناعمة أكثر، وبموازاة ذلك، تتراجع الحاجة إلى استخدام القوة العارية. وعلى العكس من ذلك، فكلما تضخم استخدام القوة الإكراهية، وضعفت شرعية مثل هذا الاستخدام، يتضاءل معها النفوذ الثقافي والسياسي والتجاري، وكل ما يدخل ضمن دائرة القوة الناعمة.

ب - القيم السياسية : مثل حرية الصحافة، وقدرة الفرد على انتقاد حكومته.

ج - السياسة الخارجية : وهي مكون هام من مكونات القوة الناعمة؛ فاتباع سياسات خارجية مصممة بشكل جيد سيدفع الدول الأخرى إلى أن تحذو حذو الدولة التي تستخدم القوة الناعمة. وتعد الدبلوماسية العامة - القاعدة الأساسية، لمفهوم "القوة الناعمة"، إضافة إلى التجارة

والمســاعدات الاقتصــادية للــدول الأجنبيــة. ويــرى نــاي، أن تصميم وتنفيذ الثورات الـ "مخملية"، و" الملونة، مظهـر مـن مظـاهـر "القـوة الناعمـة". فمـن خـلال الدبلوماسـية العامـة يمكن النفاذ إلى قلوب وعقول ونفوس الناس، والتأثير على الشؤون الداخلية للدول ذات السيادة.

ولا يعـني الحـديث عـن اسـتراتيجية ومشـروع الحـرب الناعمـة فصـل تناغمهـا عـن القـوة الصـلبة، لأن أمريكـا سـتبقى محتاجـة إلى القـوة العسـكرية والأمنيـة لمواجهـة " الإرهـاب وتحقيـق الاسـتقرار" حسـب مـا أفصـح عنـه منظـر الحـرب الناعمـة "نـاي" قـائلاً "الحفـاظ علـى سـطوة القـوة الصـلبة جـوهري للأمـن القـومي الأمريكـي" وأضـاف "أنـا كنائب سابق لـوزير الـدفاع الأمريكـي لا يمكـن لأحـد أن ينافسني أو يزايد أمامي في مدى معـرفتي واقتنـاعي بأهميـة القوة العسكرية الصلبة ولكننا لن ننجح بالسيف وحده، ولقـد نجحنــا بمواجهــة الاتحــاد الســوفيتي لــيس بــالقوة العسـكرية والـردع العسـكري فحسـب، ولـيس مـن خـلال

عمليات الحرب الباردة، بل بسبب القوة الناعمة التي قدر لها أن تساعد في تحويل الكتلة السوفيتية من الداخل، ولو استغرق ذلك عشرات السنين. فالعبرة الأهم هي الصبر والنفس الطويل والمزج والتوازن بين القوتين الصلبة والناعمة وتلك هي القوة الذكية" (٣٠).

إن تحقيق الأهداف، لا يمكن دائماً بالقوة الناعمة، لذلك تعمد القوى الكبرى إلى المزاوجة بين القوة الناعمة والقوة الصلبة، فمن "أجل كسب السلام"، يتعين على الولايات المتحدة أن تظهر براعة كبيرة في ممارسة القوة الناعمة كما أظهرت براعتها في ممارسة القوة الصلبة، لكسب الحرب "ضد الإرهاب".

وهذا المزج يشكل ما يسمى "القوة الذكية" ، على أن المزج لا يعطي حاصلاً حسابياً بسيطاً، لأن هناك علاقة جدلية بين القوتين، خاصة وأن القوة الصلبة "لها جانب جذاب أو ناعم، لأن الناس تميل إلى القوي وإن كانت

تشفق على الضعيف، كما أن القوة الصلبة قد تُستخدم لإحداث نتائج محببة وجذابة. ففي حرب العراق كانت هناك مجموعة أخرى من الدوافع لها علاقة بالقوة الناعمة، فقد اعتقد المحافظون الجدد أن القوة الأمريكية يمكن استخدامها في تصدير الديمقراطية إلى العراق وفي تحويل سياسة الشرق الأوسط (٣١).

من كل ما سبق يتضح لنا أن القوة الناعمة لبلد من البلدان كما يقول ناى ترتكز على ثلاثة موارد: الأول: الثقافة (الإعلام والتكنولوجيا والمعلومات). والثاني : الروح المعنوية ، والمورد الثالث هو السياسة الخارجية والسياسة الداخلية. كما أكد ناي أن القوة الناعمة لا تلغي القوة الصلبة (الكتلة الحيوية والأرض والسكان ، والقدرة العسكرية، والقدرة الاقتصادية). وإنما لابد من التوفيق بينهما تحت مسمي " القوة الذكية ، فالقوة الذكية عبارة عن مزيج من القوة الصلبة والقوة الناعمة" (٣٢).

والسؤال الآن : ما علاقة القوة الناعمة بحروب الجيل الرابع ؟!

من المعروف أن حروب الجيل الرابع تسعي إلي هدم الدولة الشاملة، والمقصود بالدولة الشاملة، الدولة القادرة علي الحرب أو القادرة علي الاستقرار، وبالتالي الدولة الشاملة هي الإمكانية الخاصة بالدولة، وتنقسم القوة الصلبة إلي الكتلة الحيوية، ثم الأرض والسكان، ثم القدرة العسكرية، ثم القدرة الاقتصادية. أما القوة الناعمة أو القوة غير الملموسة وتنقسم إلي قدرة السياسة الخارجية، والسياسة الداخلية، والإعلام، والتكنولوجيا والمعلومات، والروح المعنوية.

ما يهمنا هنا فيما يتعلق بحروب الجيل الرابع في القوة الناعمة عدم الإحساس بالمكان بالنسبة للسكان، ثم انهيار السياسة الداخلية، ثم صنع إعلام موجه، ثم قتل الروح المعنوية، وهذا هو هدف حروب الجيل الرابع، فإذا نجح هذا الهدف من خلال تلك الحروب تولدت الدولة

الفاشلة أو الميتة؛ وهذا لن يتم إلا من خلال إسقاط نظام الدولة المستهدفة، وبالتالي تكون استراتيجية القوة في يد الشعب، والتي سوف تؤدي إلى الفوضى الخلاقة، لأن تحكم الشعب في مقدرات أمور الدولة على اختلاف أفراده وأحزابه وطوائفه دون ضابط ولا رقيب سيؤدي إلى الاختلاف والافتراق وبالتالي البقاء في حلقة مفرغة من الصراعات والثورات بلا عمل ولا بناء.

هذا هو التكتيك المستخدم الآن لغزو الدول المستهدفة عن طريق قوة شعوبها لتدمير أنظمة وأعمدة الدولة بدون الاضطرار إلى التدخل الأجنبي، حيث يقوم عناصر الطابور الخامس بالضغط على الدولة من الداخل، ويقوم المجتمع الدولي بالضغط من الخارج، حتى تخضع الدولة في النهاية لقوانين المحتل الأجنبي غير المرئي للشعوب في العملية برمتها !

إذن الهدف من حروب الجيل الرابع هو إيجاد الدولة الميتة، وذلك من خلال هدف مباشر، ويشمل :السكان،

والسياسة الداخلية، والإعلام، والروح المعنوية، ثم وهدف غير مباشر، ويشمل تحييد القدرة العسكرية، ثم هدم القدرة الاقتصادية، ثم وقف السياسة الخارجية، وهذا لا ينفذ علي أرض الواقع إلا من استراتيجيات حرب اللاعنف والكفاح السلمي التي تحدث عنها جين شارب.

وهذه الاستراتيجية تهدف إلي ازالة الدولة وتغييبها إلي أطول فترة ممكنة؛ حيث يشكل وجود الدولة الواعية والمدركة للمخاطر والتهديدات يشكل العقبة الكبرى ضد هذا المخطط الخبيث ، فالدولة الواعية المدركة تستطيع أن تواجه هذا المخطط وتقضي عليه ولأبعاده الإجرامية، فتستطيع أن تقضي علي عناصره التي حاولت أن تدمر الدولة وتجعلها تغيب عن الوعي والإدراك لحقائق المخطط الخبيث ، حيث تعد إزالة الدولة بإزالة أركانها، والقضاء علي الأبعاد والجوانب الارتكازية الخاصة بكيان الدولة وبمصالحها أحد الأهداف الرئيسية الحروب الجيل الرابع، وهو ما يستخدم آليات الإلهاء وآليات التعمية وآليات

التغييب عن الوعي وإزالة الشهوات وزيادة الأحقاد ونشر الظلم بأبعاده وجوانبه المتعددة ؛ حيث يقوم هذا الهدف بإزالة الدولة إلي أطول فترة ممكنة سواء كان سياسياً ، أو اقتصادياً ، أو قانونياً ، أو جغرافياً ، وإزالتها بشكل أساسي وإحداث حالة من الانقسام تضيع فيها كافة الحقوق.

ومن هذا المنطلق طبقت الإدارة الأمريكية استراتيجية القوة الناعمة وتكتيكاتها في عملية " الربيع العربي" من خلال "دعم وتوجيه آلاف الناشطين المدربين ، وتحريك الدول والقوي والشخصيات المرتبطة بها سواء من قادة أركان الجيوش أو بمؤسسات النظم البائدة" (٣٣).

الفصل الثاني

تحليل محاضرة ماكس ماينورج عن طبيعة حروب الجيل الرابع

تطـورت مفاهيـم الحـروب كثيـراً عبر العصور ، كما تطورت أدواتها ، ومع هـذا بقي العنصـر البشـري العامـل المشـترك فيهـا جميعـا ، فالحرب كانت وسيلة بحد ذاتها ، ليحقـق أحـد أطـراف النـزاع مـا لـم يحققـه بالوسـائل السياسـية، ولكـن المفارقـة فـي حروبنـا الحديثـة أنهـا أصـبحت غابـة بحـد ذاتهـا .عـلاوة علـى كونهـا وسـيلة، فالنمـط العصـري مـن الحـرب بـدأ يسـتخدم هـذه الوسـيلة كغايـة لخلـق نـزاع لا ينتهـي وغايـة مـن يشـعلها هـو أن "تستمر في عملية استنزاف لا تنتهـي، حتي في دول يفترض أنها "صديقة" للإمبرياليـة، وهـذا بالنظـر لخصائـص هـذا النـوع مـن الحـروب" (٣٤).

فـي حقيقـة الأمـر تطـورت مفـاهيم الحـروب بصـورة تختلف البتة عن بدايتها وتطوراتهـا اللاحقة قبل أن تصل

ذروة تطورها في العصر الحاضر، ففي حين كانت الحرب التقليدية، تقوم أساساً علي الانضباط والتزام الخطة العسكرية من حيث توزيع أدوار فروع الأسلحة العسكرية في الجيوش، فقد وصلت الحالة الراهنة لمفهوم الحرب على الفوضى، " فكلما كانت الفوضى عارمة بين أطراف الصراع المتعددة بطبيعة الحال، كانت الحرب تنسجم مع طابعها "الحداثي" وابتعدت عن الحرب الكلاسيكية، فإن النتائج المرجوة منها تتحقق تلقائياً بمجرد تحقق هذه المقومات. لماذا؟ " (٣٥).

الإجابة تستند إلى التقييم الإمبريالي لفكرة الحرب ، القائمة ضمن مفاهيمها على الاستعمار والتوسع عى حساب شعوب العالم، ففي مواجهة الإمبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة لشعوب العالم، تبين من الناحية البشرية والمادية، خصوصاً في مواجهة الثقافة القومية للشعوب التي ثارت في وجه الاستعمار وتكبد فيها الغزاة خسائر جسيمة، إضافة إلى تنامي النزعة القومية وانتشار

الفكـر التحـرري للاسـتعمار والتوسـع ، فلـم يعـد بمقـدور القـوى الإمبريالية دفع الكلفة العالية للاستعمار والتوسـع ، فقـد شـهد القـرن العشـرون خـروج أكـبر إمبراطـوريتين اسـتعماريتين مـن الحلبـة السياسـية الدوليـة ، ومـن دائـرة التـأثير الفعـال ، وهمـا فرنسـا وبريطانيـا ، ومـع صـعود الإمبرياليـة الأمريكيـة إلـي السـاحة الدوليـة عقـب الحـرب العالمية الثانية استوعبت الدرس البريطـاني والفرنسـي جيـدا ، فكان لا بد من مراجعة لمفهوم الحـرب في سياق السـعي لفرض الهيمنة علي دول العالم (٣٦).

فنظراً للكلفة العالية للحرب ونظرا للتحدي الذي يخلقه الغـزو العسـكري للـدول في مواجهـة الثقافـة القوميـة للشـعوب، اسـتندت الحـروب الحديثـة في مواجهـة الأعـداء المحـتملين إلـي تجويـف المحتـوي القـومي للأمـم ثقافيـاً ، وسياسـياً ، واجتماعيـاً ، بحيـث تسـقط الـدول كحبـة الفاكهـة الناضـجة ليتلقفهـا المسـتعمر بأقـل الأثمـان ودونمـا خسارة قطرة دم واحدة (٣٧).

لم تنته الحرب النظامية التقليدية بين الجيوش، لكن صارت حروب الجيل الرابع بشكل أكثر نضجاً ، وأتقنت حركات التحرر هذا النوع نظرا للفارق بين قدرتها وطبيعتها وظروفها مقارنة بالجيوش النظامية، فقد أخذت الحروب من هذا النوع نصيباً هاما في مجمل الحروب التي اندلعت بعد الحرب العالمية الثانية، ولعل إثارة الصراع " الفتن" في الدول بواسطة الولايات المتحدة ، كانت حاضرة وبقوة استثمرتها في الهيمنة علي كثير من الدول (٣٨).

باتت النظرية التي تقول بالحرب الناعمة أو القوة الناعمة التي بشر بها جوزيف ناي، هي النظرية الرائجة في حروب الجيل الرابع، علماً بأن ظهور النظرية جاء في تسعينات القرن الماضي، لكن جذورها تعود إلي مرحلة الحرب الباردة. وقد ظهرت الحاجة الماسة لهذه الحرب بعد الكلفة القاسية التي دفعتها الولايات المتحدة في حربها علي العراق وأفغانستان، ففي ظل الصعود القوي لدول كالصين وروسيا والهند وغيرها، وتراجع القوة الأمريكية قياساً علي

صعود الآخرين، علما أنها لا تزال القوة الكبري عالمياً، إلا أن علامات الوهن بدت واضحة عبر لملمة إدارة أوباما لما خلفته إدارة بوش الابن، فمواجهة العالم المعاصر لم يعد مجدياً بالحرب القاسية، فلا بد من الحرب البديلة التي لا تطيح بالإمبراطورية الأمريكية عبر حروب جديدة (٣٩).

تحدّث البروفيسور "ماكسماينورج " الأستاذ بمعهد الدراسات الاستراتيجية التابعة لكلية الحرب بالجيش الأمريكي وأحد أعمدة المخابرات العسكرية السابقين عن هذا النوع من الحرب في ندوة عقدت بمعهد دراسات الأمن القومى الاسرائيلي في أغسطس ٢٠١٢ قال فيها : إن الهدف من هذه الحرب لا يكون بتحطيم مؤسسة عسكرية أو القضاء على قدرة أمة، وإنما الهدف هو الإنهاك والتآكل ببطء، ولكن بثبات يؤدي إلى إرغام العدو على تنفيذ إرادتك.ولا يأتى هذا الإرغام إلا من خلال إرباك الدولة وزعزعة الاستقرار عبر أشخاص يفترض انتماؤهم وولاؤهم للدولة (٤٠).

وكما جاء في محاضرة ماكس ماينورج ، وهو يشرح كيفية غزو دول الأعداء عن بعد، بزعزعة الاستقرار بصور متعددة، غالباً ما تكون حميدة إلى حد ما أي ينفذها مواطنون من الدولة العدو نفسها، ويشرح لهم فكرة حروب الجيل الرابع والتي تستهدف . كما يقول " ليس تحطيم مؤسسة عسكرية أو القضاء على قدرة أمة في مواجهة عسكرية، ولكن إنهاك إرادة الدولة المستهدفة ببطء، بعد نشر الفوضى فيها كما حدث في الاتحاد السوفيتي (الحرب الباردة التي لم تكلف أمريكا ثمن طلقة رصاص واحدة) وكانت سبباً قوياً أدى إلى انهياره " (٤١).

وقد عرف ماينورج حروب الجيل الرابع، أو الحرب اللامتماثلة على الشكل التالي:" هي تلك الحرب التي تعتمد نقاطاً مختصرة وهي: الحرب بالإكراه، إفشال الدولة، زعزعة استقرار الدولة، ثم فرض واقع جديد يراعي المصالح الأمريكية، ويتم زعزعة الاستقرار بصور متعددة غالباً ما تكون حميدة إلى حد ما، أي ينفذها مواطنون من

الدولة العدو نفسها، وتلك الحرب لا تستهدف تحطيم مؤسسة عسكرية أو القضاء على مقدرات الدولة في مواجهة عسكرية، ولكنها تهدف إلى إنهاك إرادتها ببطء بعد نشر الفوضى في أرجائها. وفي تعريف أوضح، إنها تسخير إرادات الغير في تنفيذ مخططات العدو"، إذ الغاية هي التحكم في العدو، والقاسم المشترك في كل هذا هو " زعزعة الاستقرار"، وقوات تنفيذ هذا المخطط ليس كل أعضائها رجالاً، بل بينهم نساء وأطفال (٤٢).

ويفصل ماينورج هذه الحرب بالخطوات التالية :

١ - "الحرب بالإكراه"، أي أن على العدو قبول الحرب رغماً عن إرادته. ولتحقيق هذا العنصر يجب النجاح في عمليات طويلة أهمها " الإنهاك والتآكل ببطء ولكن بثبات لإرادة الدولة المستهدفة من أجل اكتساب النفوذ (gaining influence) وإرغام العدو على التنفيذ بالإكراه... وأحياناً يكون التدخل دموياً كما حدث في

عملية الصدمة والرعب الذي ضرب بغداد، أو غير دموي كما في الحرب الكورية، والهدف هو الوصول إلى نقطة التأثير على العدو....".

٢ - " زعزعة الاستقرار (Destabilization)" ، بدون جيوش.

٣ - استخدام قوات غير نظامية من الرجال والنساء والأطفال من المواطنين ومتعددي الجنسيات، مؤكداً أن " زعزعة الاستقرار ممكن أن تأخذ صوراً متعددة، مثلا بواسطة مواطنين من دول العدو".

٤ - استخدام القدرات العقلية، أو ما وصفه أيضا بـ " القوة الذكية "، وليست قوة النيران... وأعطى المحاضر مثالاً على ذلك قائلاً " إن جدار برلين لم تسقطه الدبابات والمدفعية، بل أسقطه المارك الألماني..."، وفي هذا " تُستخدم وسائل الإعلام الجديد والتقليدي، ومنظمات المجتمع المدني، والمعارضة، والعمليات الاستخبارية، والنفوذ....".

٥ - خلق الدولة الفاشلة، أي إفشال الدولة من أجل " فرض واقع جديد..."، وأكد أهمية عدم استعمال هذه الكلمة (الدولة الفاشلة) للحفاظ على العمل بدبلوماسية وعدم استفزاز الطرف الآخر، وإن بعضاً من هذا العنصر ينحصر في جعل جزء من الدولة لا يخضع لسيادتها، وإعطاء هذا الجزء تسمية "إقليم محكوم"، ولكن الدولة ليست هي من يتحكم فيه، بل مجموعات غير تابعة للدولة، وهي مجموعات محاربة وعنيفة وشريرة، وأحياناً مبهمة.

٦ - وبعد خلق الدولة الفاشلة يمكن التدخل والتحكم فيها "وأبعد من ذلك"، مؤكداً ضرورة عدم ترك هذه الدولة ليختطفها الآخرون.

وذكر البروفيسور ماينورج أيضاً إن هذه الخطوات عندما " تكون جيدة والمدة كافية ببطء كاف وباستخدام الطابور الخامس"، فالنجاح يكون مؤكداً، وشبّه كل ذلك بالمثل القائل " يذهب العدو للنوم، ويستيقظ ميتاً"(٤٣).

ثم يحاول ماينورج أن يضع العناصر الفاعلة التالية في خوض هذه الحرب وذلك علي النحو التالي:

١ - التظاهرات بحجة السلمية، تتطور الى اعتداء على المنشآت العامة والخاصة، وإفشاء مظاهر الفوضى والتخريب، حيث يقول ماينورج تجري زعزعة الاستقرار في الغالب بوسائل حميدة الى حد ما، حيث ينفذها مواطنون من الدولة العدو – المستهدفة، والقاسم المشترك في كل هذا الجيل من الحروب (الرابع)، هو "زعزعة الاستقرار"، ومنفذو هذا المخطط ليس بالضرورة من الرجال، بل يشاركهم غالباً النساء والأطفال. ويتابع لأن الهدف من حروب الجيل الرابع هو إنهاك وتآكل ارادة الدولة المستهدفة ببطء وثبات من أجل اكتساب النفوذ وإرغامها على تنفيذ إرادة أعدائها في النهاية.

٢ - بالتوازي وبالتتالي والتقاطع مع ما سبق يجب الاعتماد على الإرهاب، عن طريق استخدام فرق، خاصة تقوم

بعمليات الخطف، والقتل، والاغتيال، والتدمير، ويجب تجهيز فرق موت أكثر سرية، وتعمل تحت رايات مختلفة وعديدة ويجب أن تكون بداية من أهل البلد المستهدف نفسه، ثم تتوسع لتعتمد على قاعدة إرهابية متعددة الجنسيات، بتمويل واسع وسخي، تكون معدة ومدربة مسبقاً.

٣ - الاعتماد على شخصية أو شخصيات تابعة للمخابرات الأمريكية ترتدي عباءة الوطن المستهدف حسب تعبير ماينورج حرفياً، ويضيف لما قاله منظر الأمن القومي الأمريكي اليميني مارك هلز " لماذا لا نستخدم أبناءهم ضد تقنياتنا".

٤ - متابعاً... وصولاً إلى الدولة الفاشلة ، والتي أول ملامحها هو إيجاد أماكن داخل حدود الدولة العدو المستهدفة، لا سيادة لهذه الدولة عليها، عن طريق دعم مجموعات محاربة وعنيفة للسيطرة على هذه الأماكن،

وتبدأ بإخراج جزء من الدولة عن السيطرة، فيصبح خارج سيادتها، وذلك باستخدام مجموعات محاربة وعنيفة، بهدف الوصول إلى ما يطلق عليه "اقليم غير محكوم"، أو بالأحرى محكوم من قبل قوى خارج الدولة، وينتهي الأمر بتحويل الدولة إلى دولة فاشلة، يستطيع أعداؤها التدخل والتحكم فيها.

وعن استراتيجية إفشال الدول يؤكد ماينورج أن المعمول به الآن، هو الجيل الرّابع من الحرب غير التقليديّة، وهي التي يتم تنفيذها دون الحاجة إلى تدخّل عسكري مباشر، ودون الاضطرار إلى التضحية بقطرة دم واحدة من دماء الجنود الأمريكان.. ببساطة لأنّ الهدف منها ليس تحطيم جيش الدّولة المستهدفة أو القضاء على قدرتها في شن مواجهة عسكرية، بل الهدف هو الإنهاك والتآكل ببطء، ولكن بثبات من أجل أن ترغم عدوك على تنفيذ إرادتك، ويتم ذلك عبر زعزعة الاستقرار في الدّولة المستهدفة، وبثّ الفوضى فيها إلى أقصى درجة ممكنة إلى أن يتمّ الانهيار

التّام ببطئ ولا يستيقظ العدوّ إلا ميّتاً. فأمريكا لم تعد بحاجة إلى إرسال قوّات نظامية عبر الحدود، فقد حلّت القدرات العقليّة الذكيّة محلّ ذلك، وهي السّلاح الرّئيسي الّذي يحتاجه هذا النوع من الحرب؛ أي الجيل الرابع من الحرب غير المتكافئة وقوّة النيران وقع تجاوزها، لتحلّ محلّها قوّة إشاعة الفوضى، وتفجير الدّول من الدّاخل، ويتمّ ذلك عبر عملائها دون تدخل عسكري مباشر. وتساءل "ماينورج" قائلا: ما الذى أسقط حائط برلين ؟ الطائرات !! الدبابات !! ثم أجاب بالطبع لا إنه اقتصاد المارك الألمانى !!

وأوضح ماينورج أن زعزعة الاستقرار في الغالب تكون بوسائل حميدة إلى حد ما، مثل أن ينفذها مواطنون من الدولة العدو، باختصار، إيجاد دولة فاشلة، وأول ملامحها هو إيجاد أماكن داخل حدود العدو ليس له سيادة عليها، عن طريق دعم مجموعات محاربة وعنيفة للسيطرة على هذه الأماكن، وتنتهي بتحويل الدولة إلى " دولة فاشلة". وقال ماينورج إنه ليس مطلوباً إسقاط الدولة العدو واختفاؤها،

بل المطلوب أن تظل موجودة بكامل مواردها وقدراتها، لكن يجري "اختطافها" عن طريق "التحكم" الفكري والسياسي لنظام الحكم والسيطرة عليه كاملاً، بحيث تصدر القرارات والسياسات، لا لتعبر عن إرادة الشعب، بل لتعبر عن إرادة الدولة التي احتلت وسيطرت عليها.

وقالماينورج: " الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز كان أول من أمر ضباطه، في ٢٠٠٥ في الأكاديمية العسكرية في كراكاس، بأن يتعلموا "الجيل الرابع من الحرب غير المتماثلة"، وأن يطوروا عقيدتهم العسكرية للتعامل معها، بحيث لا يكون الدفاع أو الهجوم بالقوات النظامية التي كان آخر استخدام لها في أمريكا اللاتينية منذ ١٠٠ عام (٤٤).

ويتابع ماينورج كما أنه ليس المطلوب في هذا الجيل من الحروب (الرابع) إسقاط الدولة – العدو واختفاؤها (إن لم نستطع ذلك) بل المطلوب، أن تظل موجودة بكامل مواردها

وقـدراتها ، لكـن يجـري اختطافهـا عـن طريـق الـتحكم الفكـري والسياسـي بنظـام الحكـم والسـيطرة عليـه كاملاً، بحيث تصدر القـرارات والسياسـات، لا لتعبر عـن إرادة الشعب، بل عـن إرادة الدولـة، الـتي احتلـت وأخضـعت للسيطـرة.

ويضيفماينورج : الدولة الفاشـلة "ليسـت حـدثاً ، وإنمـا عملية بخطوات تنفذ ببطء وثبات وبهدوء كافٍ، وإذا فعلت هـذا بطريقـة جيـدة ولمـدة كافيـة باسـتخدام مـواطني دولـة العدو، فسيسقط عدوك ميتاً"!(٤٥).

ومن مظاهر حرب إفشال الدولة تحويل مناطق في الدولة إلى ما يسمى "إقليم غير محكـوم"، وخلق دولـة فاشـلة غير قادرة على التحكم في شعبها أو حدودها أو مواردها، الأمر الـذي يعتـبر ذريعـة قويـة للـدول العـدو للتـدخل وإحكـام شـروطها وفـرض السـيطرة. كمـا يـتم اختطـاف الدولـة عـن طريق التحكم الفكـري للقـائمين علـى النظـام السياسـي،

بحيث تصدر قرارات وسياسات لا تعبر عن إرادة الشعب، وإنما تعبر عن إرادة الدولة التي قامت بالاحتلال والسيطرة. وهناك طرق مختلفة لأشكال إفشال الدولة يمكن تحويلها إلى دولة جريمة، أو دولة خلافات عرقية أو طائفية، أو دولة مخدرات.. الخ (٤٦).

والهدف هو الإنهاك والتآكل ببطء ولكن بثبات إرادة الدولة المستهدفة، والقاسم المشترك في كل ذلك هو "زعزعة الاستقرار". الذي يكون في الغالب بوسائل حميدة إلى حد ما، مثل أن ينفذها مواطنون من الدولة العدو. والهدف إفشال الدولة، وأول ملامحها هو إيجاد أماكن داخل حدود العدو ليست له سيادة عليها، عن طريق دعم مجموعات محاربة وعنيفة للسيطرة على هذه الأماكن،. تبدأ بإخراج جزء من الدولة عن السيطرة، فيصير خارج سيادة الدولة، وذلك باستخدام مجموعات محاربة وعنيفة وشريرة في جزء معين من الدولة لتصنع ما يطلق عليه "إقليم غير محكوم"، أو بالأحرى هو "إقليم محكوم" من قبل قوى

أخرى خارج الدولة. وينتهي الأمر إلى دولة فاشلة يستطيع أعداؤها التدخل والتحكم فيها (٤٧).

وفي ذلك التوقيت يتم إجبار الدولة على الخضوع لشروط الدول العظمى إما عن طريق تقديم التنازلات وإما عن طريق الاحتلال العسكري الفعلي على الأرض، وإما عن طريق قروض المؤسسات البنكية والشركات العملاقة عابرة القارات التي تقدم مشاريع إعادة الإعمار المزعومة التي تستنزف موارد الدولة بينما يتصارع أبناؤها كما حدث ويحدث في العراق (٤٨).

وأنهى ماينورج حديثه بتذكير الحاضرين بكلمتين أساسيتين، هما: "الحرب" التي هي الإكراه سواء كانت قاتلة أو غير قاتلة، و"الدولة الفاشلة" التي تتم ببطء وثبات، " ، وإذا فعلت هذا بطريقة جيدة ولمدة كافية " باستخدام مواطني دولة العدو"، فسيسقط عدوك ميتاً" (٤٩).

إذن أهم عناصر حروب الجيل الرابع، كما ورد في تلك المحاضرة هي:

١ - الإرهاب، وقواعد إرهابية وطنية أو متعددة الجنسيات.

٢ - استخدام الضغوط السياسية والاقتصادية والحقوقية والعسكرية لتشكيل حالة من الإرباك وعدم الاستقرار.

٣ - تفتيت الدولة الواحدة واستخدام تكتيكات التمرد والمليشيات.

٤ - حرب الإعلام والشائعات (القوة الذكية).

إن تفاصيل المحاضرة المذكورة تؤكد مقولة فرانكلين روزفلت، الرئيس الأمريكي الأسبق: " لا شيء يحدث على سبيل الصدفة في عالم السياسة، وإذا حدث ذلك فأعلم أن ذلك مخطط له كي يظهر وكأن كل شيء قد حدث على سبيل الصدفة "(٥٠).

والمحاضرة تفسّر بعضاً من حقيقة أحداث الحروب التي تعاني منها منطقتنا العربية بالإكراه. هذه الأحداث التي

لعبت وسائل الإعلام فيها دور خطير لتوجيه الرأي العام بعيداً عن الحقيقة، فهذه الأحداث الخطيرة لا يمكن إلا أن تكون مرسومة ومخططا لها مسبقاً في الغرف المغلقة.

لم تكن محاضرة مانورينج مقنعة، وهو يحاول إعادة إحياء هذا المفهوم، مستخدما السلسلة الفيلمية الشهيرة هاري بوتر كمدخل ليلقي بأول الرسائل التي يريدها أن تصل إلى الجمهور، حيث لفت خلال هذه المقدمة إلى أن "مجتمع السحرة" لم يكن يواجه متدينين أو حكاماً، بل كان يواجه ساحراً منهم. محاضرة ماورينج أوضحت الأبعاد النظرية للمصطلح الذي استخدم لأول مرة في عام ١٩٨٠ من قبل فريق من المحللين الأمريكيين، من بينهم المحلل الأمريكي "وليم ليند" ؛ قبل أن تتهال أسهم النقد الأكاديمي على هذه النظرية لتبين أنها محض تبرير لفشل الاستخبارات الأمريكية في التنبؤ بالمخاطر التي تهدد الولايات المتحدة (٥١) .

لم يضرب مانورينج مثالاً معاصراً يدعم نظريته سوى مثال الخطبة العصماء التي ألقاها رئيس فنزويلاً الراحل "هيوجو شافيز" أمام الأكاديمية العسكرية الفنزويلية داعياً ضباطه لاستيعاب مفهوم حروب الجيل الرابع ضمن "عقيدتهم العسكرية".

في رسائل نظرية سريعة مقتضبة تحاول أن تبدو منطقية، يقترب "ماينورج" من رسالته التي افتتحها بقصة الطفل "هاري بوتر" (٥٢) ، محاولاً أن يعيد تعريف العلاقة بين المجتمع والدولة مستخدما مفهوم "الإكراه".

إن مقولات "ماينورج" إن الحرب إنما هي محض إكراه، وأن الهدف الأساسي لأية عملية عسكرية أن يقوم فيها الطرف المنتصر بـ"إكراه" الطرف المهزوم على الانصياع لإرادته. ربما تكون هذه الرؤية صحيحة قطعا، لكن "تلبيس إبليس" يبدأ من الخطوة التالية، من محاولة وصف جهود المجتمعات للضغط على حكوماتها المستبدة أو

الفاسدة لزحزحتها باتجاه الإصلاح بأنها "إكراه"، وبما أن الحرب إكراه، فإن القوى المجتمعية المطالبة بالإصلاح – وفق تعريف النظرية اللوذعية - إنما تقوم بشن حرب على الدولة التي تحكمها. وهذه القوى المجتمعية، وفق نفس النظرية، لا تقوم بهذا الضغط لغرض الإصلاح، بل تستهدف "هدفاً خبيثاً ماكراً"؛ ألا وهو الوصول بدولها إلى مرحلة "الدولة الفاشلة"، حيث يمثل هذا المصطلح الركن الثاني في هذه النظرية الفقيرة مفاهيمياً وتطبيقيا خلال العقدين الأخيرين، وتمثل في (٥٣) :

١ - إنهاك وتآكل إرادة الدولة المستهدَفة ببطء وبثبات من أجل اكتساب النفوذ وإرغامها على تنفيذ إرادة أعدائها في النهاية، والهدف من هذه الحرب ليس تحطيم مؤسسة عسكرية، ولا القضاء على قدرة أمة، بل الهدف هو الإنهاك والتآكل ببطء، لكن بثبات يُرغم العدو على تنفيذ إرادة المعتدي. كما أنه ليس المطلوب في هذا الجيل من الحرب إسقاط الدولة العدو واختفاؤها، بل المطلوب أن تظل

موجودة بكامل مواردها وقدراتها ، لكن يجرى اختطافها ، عن طريق التحكم الفكري والسياسي بنظام الحكم والسيطرة عليه كاملاً، بحيث تصدر القرارات والسياسات؛ لا لتعبر عن إرادة الشعب، بل لتعبر عن إرادة الدولة التي احتلت وأخضعت للسيطرة. وتجري زعزعة الاستقرار في الغالب بوسائل "حميدة" إلى حد ما ، مثل أن ينفذها مواطنون من الدولة العدو، و القاسم المشترك في كل هذا الجيل هو "زعزعة الاستقرار". أما منفذو هذا المخطط ليس بالضرورة من الرجال، بل يشاركهم غالباً النساء والأطفال.

٢ - إن أول ملامح الدولة الفاشلة هو إيجاد أماكن داخل حدود الدولة العدو، لا سيادة لهذه الدولة عليها ، عن طريق دعم مجموعات محاربة وعنيفة للسيطرة على هذه الأماكن، وتبدأ بإخراج جزء من الدولة عن السيطرة، فيصبح خارج سيادتها ، وذلك باستخدام مجموعات محاربة وعنيفة، بهدف الوصول إلى ما يطلق عليه إقليم غير

محكوم، أو بالأحرى إقليم محكوم من قبل قوى أخرى خارج الدولة، وينتهي الأمر إلى تحويل الدولة إلى دولة فاشلة يستطيع أعداؤها التدخل والتحكم فيها

٣ - وكما قال "ماينورج" ، فإن الرئيس الفنزويلى الراحل "هوجو شافيز" هو أول من أمر ضباطه، في ٢٠٠٥ في الأكاديمية العسكرية في كراكاس، بالتدرب على "الجيل الرابع من الحرب غير المتماثلة" ، وأن يطوروا عقيدتهم العسكرية للتعامل معها، بحيث لا يتم الدفاع أو الهجوم من خلال القوات النظامية التي كان آخر استخدام لها في أمريكا اللاتينية منذ ١٠٠ عام.

٤ - وختم "ماينورج" حديثه بتذكير الحاضرين بمفردتين أساسيتين، هما: "الحرب التي هي الإكراه سواء كانت قاتلة أم غير قاتلة، والدولة الفاشلة التي تتم ببطء وثبات، "وإذا فعلت هذا بطريقة جيدة ولمدة كافية (باستخدام مواطني دولة العدو)، فسيسقط عدوك ميتاً" (٥٤).

من كل ما سبق يتضح لنا أن حروب الجيل الرابع هي عملية انهاك وتآكل ببطء لإدارة الدولة المستهدفة تشبه عملية الهيروين، بغرض التحكم في إدارة هذه الدولة أو الوصول الى نقطة تأثير فى إرادة هذه الدولة، عن طريق زعزعة الاستقرار، واستهداف المرافق الاقتصادية، وخطوط المواصلات، والاستيلاء على بعض المدن عن طريق بعض الجماعات والميليشيات المسلحة، وضرب مؤسسات الدولة ومحاولة تشويهها والاستهانة بها، وإضعاف وشل القدرات المعلوماتية لدى هذه الدولة من حيث الترابط والمراقبة والتحليل، موضحاً أن هدف حروب الجيل الرابع، هو خلق دولة فاشلة، وإبطال مركز القرار، فإذا لم تتحكم الدولة فى كامل إقليمها بأن هناك إقليماً يتحكم فيه كيان آخر غير الدولة وهى مجموعة غير تابعة للدولة وتتميز بالعنف ومسلحة، مثل حماس، والحوثيين وظهور ميليشيات مسلحة مستقلة، وبذلك تخلق دولة فاشلة يستطيع العدو أن يتحكم ويقسم هذه الدولة بسهولة، مؤكداً أن "حروب الجيل الرابع

موجهة بالأساس للمدنيين؛ لأن العسكريين مؤهلين لعملية تحليل التهديدات ومواجهتها ، وتحكمهم قواعد وضوابط صارمة في تسلسل هرمي لتنفيذ المهام والأوامر، والهدف الاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط هو مشروع الشرق الأوسط الجديد" (٥٥).

الفصل الثالث

دور الحرب النفسية في زعزعة الاستقرار

عرف الإنسان الصراع لأجل البقاء ، منذ فجر التاريخ، فقد "لجأ منذ القدم إلي استغلال مناطق الثروة والنفوذ عن طريق ترهيب أخيه الإنسان بإطلاق الدعاية والشائعات المغرضة، وبث الشك والخوف والشقاق في صفوف الخصوم" (٥٦). والحرب النفسية شكل من أشكال الصراع المبرمج الذي تستخدمه الدول والمؤسسات الكبرى وصولاً إلي تحقيق أهداف متنوعة؛ سياسية وعسكرية واجتماعية وثقافية. إنها حرب "حرب تحطيم المعنويات، وحرب الأعصاب، وحرب غسيل الأدمغة ، وحرب العقول ،وحرب الأفكار" (٥٧) ، كسلاح "غير مباشر يعتمد علي مبادئ وتطبيقات علم النفس في مجال تغيير الاتجاهات النفسية ، وتشكيل الفكر والوجدان والسلوك بما يتناغم مع أهداف الطرف المستخدم لها" (٥٨).

وقد كان الجيل الرابع من الحروب مفهوم ارتبط في نشأته وتطوره بتطور الإعلام وشيوع تطبيقات النظام الدولي الجديد ، بل ويعود إلي الحروب، عندما أدرك بعض القادة العسكريين أن جنودهم يقاتلون قتالاً شرساً تارة ، ويتبلدون إلي حد الجبن تارة أخري ، وكذلك جنود العدو الذين يستبسلون في الدفاع عن مواضعهم تارة ، وينسحبون متقهقرين تارة أخري حتي عزا ذلك التناقض الانفعالي إلي العالم النفسي وتوجهوا إلي المختصين لدراسته وتطوير وسائل تقويته عندهم ، وإضعافه عند خصومهم ، فكانت إجراءاتهم العملية في هذا المجال شملت العديد من الوسائل والأدوات وضعت تحت عنوان الحرب النفسية التي عُرفت ما بعد الحرب العالمية الثانية بالاستخدام المخطط من جانب الدولة في وقت الحرب أو في وقت الطوارئ لإجراءات عاتية بقصد التأثير علي آراء وعواطف وسلوك جماعات أجنبية عدائية أو محايدة أو صديقة بطريقة تعبر عن تحقيق سياسة الدولة وأهدافها .وعرفت بعد ذلك بقليل بأنها "حملة شاملة

تستعمل كل الأدوات المتوفرة وكل الأجهزة للتأثير في عقول جماعة محددة بهدف تدمير مواقف معينة ، وإحلال مواقف أخري تؤدي إلي سلوكية تتفق مع مصالح الطرف الذي يشن هذه الحملة" (٥٩).

علاوة علي أن حروب الجيل الرابع قد أكدت انحسار فرض الإرادة بقوة السلاح المادي، ذي التكلفة الباهظة في المال والأرواح وتحقيق الأهداف ، لذلك رأت الولايات المتحدة أن "الحرب النفسية تفي بأغراض استخدام السلاح وأكثر دون اللجوء إليه، فهي لا تعتمد علي التدخل المباشر، واستخدام القوات المسلحة المرتبطة بالاستعمار التقليدي، والعدوان المعلن، وما يؤدي إليه من رفض ومقاومة. كما أن تأثير وأمد استخدام القوة محدودان، مقارنة بالحرب النفسية، ناهيك عن قلة تكلفتها إذا ما قورنت بحرب السلاح" (٦٠).

ولما كانت حروب الجيل الرابع تسعي إلي دفع العدو إلي تحطيم نفسه، أو انهزامه عن طريق نفسه، فإن إخضاع دولة بالوسائل النفسية أرخص بكثير من إخضاعها بقوة السلاح ، لقد أصبح في مقدور الجيوش أن تنتصر بواسطة الحرب النفسية، بأقل عدد وعلي أرض غير مناسبة إذا مهد لها علم النفس الطريق، بإضعاف معنويات الأعداء العسكريين والمدنيين، وبتقوية القوات الضاربة والجبهة الداخلية. ويمكن تعريف الحرب النفسية ومفهومها بأنها "وضع الأمور والشؤون السياسية والعسكرية والاقتصادية والعقائدية التي خطط لها موضع التنفيذ الفعلي بهدف التأثير علي الآراء والمواقف ووجهات النظر والسلوكيات في هدف معين؛ لذلك لجأت إلي الحرب النفسية بغرض استخدام الدعاية ضد الخصم بالإضافة إلي استخدام وسائل أخري لها طابع النشاط الحزبي، أو الاقتصادي، أو السياسي علي النحو الذي يكون مكملاً لنشاط الدعاية،

وإذا أخذنا في ذلك أن الحرب النفسية هي لون من النشاط الدعائي الذي استجد بعد الحرب الكونية الثانية" (٦١).

وتوجه الحرب النفسية لشل معنويات العدو وتقليل عزيمته علي القتال وإلقاء الرعب في قلبه ودفعه إلي الاستسلام . والحرب النفسية حرب شاملة توجه إلي القوات المسلحة وتمتد إلي الجبهة الداخلية ، إلي الشعب كله عسكريين ومدنيين ، وهي حرب متصلة ومستمرة في زمن الحرب والسلم علي السواء .. إنها تشن قبل الحرب الفعلية "لتحطيم معنويات العدو، وتتغلغل الحرب النفسية في جميع شؤون ونواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية" (٦٢).

وتقوم الحرب النفسية علي الهجوم والدفاع في وقت واحد وتستخدم أوسع نطاق الحرب الخاطفة ؛ "فالحرب النفسية هي تحطيم قوة الجيش وانهزامه عن طريق نفسه وإن الحرب النفسية أقل كلفة من الحرب المادية وباستطاعة أي

جيش أي جيش أن ينتصر بواسطة الحرب النفسية بأقل عدد فهي وسيلة لإضعاف معنويات الأعداد العسكريين والمدنيين وتقوية معنويات القوات الضاربة والجبهة الداخلية" (٦٣).

لذلك رأي أنصار حروب الجيل الرابع أن "الحرب النفسية من أخطر أنواع الحروب، لأنها تستهدف في الإنسان عقله وتفكيره وقلبه لكي تحطم روحه المعنوية، وتقضي علي إرادة القتال والمواجهة لديه تقوده نحو الهزيمة، كما أن الحرب النفسية هي أخطر الحروب التي تواجه الحركات الثورية والإصلاحية في كل زمان ومكان، فهي تحاول أن تصيب الأفكار والتعاليم الناهضة، وتحول بينها وبين الوصول إلي العقول الرسوخ في القلب، وهي تعمل علي بذر بذور الفرقة والانقسام بين أبناء الشعب، أو المجتمع الواحد وتضع العقبات أمام مسيرة التقدم والتطور، وتعمل في الظلام وتطعن من الخلف" (٦٤).

كما تلجأ الحرب النفسية إلي تشويش الأفكار، وخلق الأقاويل، والإشاعات المغرضة، ونشر الإرهاب، واتباع وسائل الترغيب والترهيب، مما يجعل هذه الحرب أشد خطورة من حرب المواجهة العسكرية في ميادين القتال، كما تفعل إسرائيل في الشارع الفلسطيني من حرب نفسية، تعتمد علي بث الشائعات التي يقف وراءها الطابور الخامس وخفافيش الظلام، بهدف خلق البلبلة في المجتمع الواحد، وشق الصف الوطني، ووضع العقبات أمام مسيرة البناء والتقدم الاجتماعي ، مستخدمة كل ما تستطيع من أدوات "كعمليات غسيل للدماغ ودعايات وإشاعات وغيرها من أدوات الحرب النفسية" (٦٥).

وتدخل الحرب النفسية ضمن ما يُطلق عليه " نظرية الحرب بلا قتال "، حيث لكل جيش في العالم مصدران للقوة معنوي ومادي، والمصدر المعنوي أهم بكثير من المصدر المادي لإحراز النصر بتوجيه ضربات نفسية قوية إلي معنويات العدو لأنها مصدر القوة لديه وأفضل سلاح لتوجيه

الضربات النفسية للعدو هي " الحرب النفسية التي تستهدف عقل وتفكير قلب المقاتل بهدف تحطيم معنويته والقضاء علي رغبته وقدرته علي القتال لأن الشخصية هي ميدان الحرب النفسية لأن الحرب المادية ليست العامل الوحيد ولا الأول في كسب الحرب" (٦٦).

وتوجه الحرب النفسية "لشل معنويات العدو، وتقليل عزيمته علي القتال، وإلقاء الرعب في قلبه، ودفعه إلي الاستسلام والحرب النفسية، حرب شاملة توجه إلي القوات المسلحة ، وتمتد إلي الجبهة الداخلية، إلي الشعب كله عسكريين ومدنيين ، وهي حرب متصلة ومستمرة في ومن الحرب والسلم علي السواء" (٦٧).

ومن هذا المنطلق يمكن القول أن الحرب النفسية، وكما يراها خبراء علم النفس العسكري، هي استخدام مخطط من جانب دولة، أو مجموعة من الدول للدعاية وغيرها، من الإجراءات الإعلامية الموجهة إلى جماعات

عدائيـة، أو محايـدة، أو صـديقة للتـأثير علـى آرائهـا، وعواطفها، ومواقفها، وسلوكها، بطريقة تعين على تحقيق سياسة، وأهداف الدولة، أو الدول المستخدمة.

لـذلك رأي منظـرو حـروب الجيـل الرابـع أنـه يمكـن اسـتخدام الحـرب النفسـية مـن خـلال بـث الشـائعات في المجتمعـات المسـتهدفة ، عـن طريـق رفـع أو تـدمير الـروح المعنويـة للمسـتهدفين، ويمكـن توضـيح ذلـك مـن خـلال مـا حـدث في ثـورات الربيـع العربـي، فمـثلاً في تـونس يمكـن تلخـيص الـدور الـذي لعبتـه مواقـع التواصـل الإجتمـاعي في الإنتفاضة الشعبية في تونس بالقول أن جزءاً من تاريخ " ثورة الشـباب" في تـونس كتـب علـى الحـائط الافتراضـي لموقـع فيس بوك لأن "نظام زيـن العابـدين بـن علـي يحكـم بقبضـة جميـع الاتصـالات الإلكترونيـة، ويضـيق علـى الصـحفيين والإعلاميين، ومنع المراسلين المحليين والأجانـب مـن السـفر إلى سيدي بوزيد لتغطية الأحداث، وكـان الإعلام التونسـي يصـف الأحـداث بأعمـال إرهابيـة مخربـة، وقـد حاولـت

السلطات حجب المعلومات" (٦٨)؛ فمع القمع والتضييق الإعلامي الذي كان يعيشه التونسيون، كان البديل شبكة الأنترنيت؛ وبالتحديد الفيس بوك الذي تمكن من خلاله الشعب التونسي الالتفاف على الرقابة، وعلى التعتيم الإعلامي، وسمحت للكثيرين بنقل كم هائل من المعلومات من صور وفيديو إلى العالم وإلى التونسيين عبر موقع فيس بوك وعبر الإنترنت، مما ساعد في إقناع التونسيين بأن الوقت قد حان للانتفاضة والتحرك للخروج إلى الشارع والانضمام إلى الشباب في ثورتهم، وما حدث في تونس حدث في مصر وفي جميع دول الربيع وفي هذا السياق يقول الأستاذ "الطيب بوتيفالت" :" إن القنوات الفضائية لعبت دور مكبر صوت للحركات في الشارع العربي، وكانت أطلقت في الهواء وأحدثت ضجة كبيرة ووجدتها مادة استهلاكية مهمة، لذلك مالت حصة الأسد من المشاهدة" هذا على حسب رأيه. وفي حوار خاص أكد بوتيفارد :" أن مبادرة تحريك الشارع انطلقت من شبكات ووسائل الاتصال

الاجتماعي، بل إن صحيفة لوم وند الفرنسية قالت:" إن الثورات العربية بنت الإنترنت، مضيفاً بأن ذلك كان طبيعياً لأن وسائل الإعلام التقليدية تراجعت لصالح وسائط الاتصال الاجتماعي أو ما نسميه الاتصال الجديد" (٦٩).

ومن ناحية أخري فإن خليط من العوامل والأسباب الإعلامية، والاقتصادية والاجتماعية، والسياسية، والأمنية التي تراكمت على مدار عقود من الزمن، جعلت الشعوب العربية أشبه ببرميل البارود الجاهز للانفجار في أي لحظة، لذلك بمجرد اشتعال شرارة البوعزيزي في مدينة سيدي بوزيد بتونس، حدث الانفجار الهائل في المنطقة العربية ككل، حيث يقول بعض الباحثين إن :"حادثة حرق محمد البوعزيزي لنفسه وإن لم تكن هي الدافع للثورات، إلا أن مبررات الثورات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، كانت موجودة في واقع هذه التمعنات كوجود الغاز المشبع في جو الغرفة، فكانت حادثة البوعزيزي بمثابة الشرارة

التي انطلقت، فأوقدت النار في ذلك الغاز القابل للاشتعال أصلاً فاشتعلت الغرفة برمتها" (٧٠).

ومن هنا نستنتج أن بث الشائعات من خلال وسائل الاتصال الاجتماعي من " تويتر، فيس بوك، يوتيوب" كان لها الدور الكبير في إسقاط الأنظمة.

وفيما يتعلق بالبعد الاقتصادي تم بث الاشاعات من خلال أن الدولة المستهدفة تسعي إلي :

١ - التلاعب بثروات الوطن ومقدرات الأمة.

٢ - انتشار الفساد المالي والإداري والرشوة على نطاق واسع .

٣ - تردي الأوضاع الاقتصادية والمعيشية عامة .

٤ - انتشار الغلاء وزيادة الأسعار في مقابل تدني دخول المواطنين .

٥ - اتساع الفجوة بين الطبقة الغنية والفقيرة .

٦ - ازدياد الاحتكار والاستغلال من قبل كبار التجار ذوي النفوذ .

٧ - إزدياد الرسوم والضرائب لتغطية مصاريف كبار موظفي الدولة .

٨ - نهب ممتلكات المواطنين والتعدي عليها وسرقتها بدون محاسبة.

٩ - الإستيلاء على أراضي الدولة وبيعها أو تأجيرها بأعلى الأسعار.

١٠ - إزدياد معدلات البطالة في وسط الشباب.

١١ - ارتفاع أسعار المحروقات والماء والكهرباء.

١٢ - عدم توفير السكن لمعظم المواطنين وارتفاع الإيجار.

١٣ - وجود أزمات في المواصلات والعلاج والتعليم.

١٤ - سوء الأوضاع المعيشية بشكل عام.

١٥ - زيادة معدلات الفقر وشيوع مظاهره.

ومـن الناحيـة السياسـية تم بـث الشـائعات بـأن الدولـة المستهدفة تسعي إلي :

١ - الاستبداد في الحكم وإدارة شؤون البلاد بمعزل عن إرادة الشعب.

٢ - الاضطهاد والاستبعاد وعدم احترام حقوق الإنسان.

٣ - انتهاج سياسة التمييز بمختلف أشكاله.

٤ - إضعاف النسيج الاجتماعي وتغييب الوحدة الوطنية.

٥ - هيمنة رجال السلطة على المناصب السياسية والإدارية العليا في الدولة.

٦ - غياب الديمقراطية وعدم السماح بتكوين نقابات وأحزاب سياسية.

٧ - تزوير الانتخابات بجميع مستوياتها وأشكالها.

٨ - عدم الفصل بين السلطات الثلاث " تشريعية ، تنفيذية وقضائية.

٩ - غياب أو تغيب دور السلطتين التشريعية والقضائية.

١٠ - غياب الدور الرقابي للمؤسسات المعنية وإخضاعها للسلطة التنفيذية .

ومن الناحية الأمنية تم بث الإشاعات من خلال أن الدولة المستهدفة تسعي إلي :

- تعاظم القبضة الأمنية والقمع لجهاز الأمن مقابل غياب أو تغيب حقوق الإنسان.
- غياب دولة القانون وعدم احترام تطبيق القوانين والأنظمة المحلية
- ازدياد وتيرة الاعتقالات التعسفية والخطف والتغيب القسري.
- التنكيل بالمعارضين وتعذيبهم بمختلف وسائل التعذيب حتى الموت أو حرمانهم من أبسط حقوقهم.
- عدم تمكين المعتقلين من الدفاع عن أنفسهم أو توكيل محامين للدفاع عنهم.

- عدم محاكمة المقبوض عليهم بتهم سياسية وسجنهم لمدة طويلة بدون أحكام.
- زيادة الرقابة الأمنية على المواطنين وتكميم الأفواه ومنع حرية التعبير.
- تغييب الحلول الأمنية على الحلول السياسية في معالجة المشاكل والأزمات السياسية.

كل هذه الأمور التي تمت من خلالها بث الشائعات كانت بغرض (٧١) :

١ - زعزعة ثقة العدو والمقاتل بهدفه وتدريبه وكفايته وتحقيقه للنصر في الحرب التي يخوضها، والحط من انتصاراته وتحويلها إلي هزائم.

٢ - افتعال الأزمات وحبك المؤامرات؛ وذلك من خلال استغلال حادث، أو حوادث معينة قد تكون بسيطة، ولكن يتم استغلالها بنجاح من أجل خلق أزمة تؤثر في نفسية العدو وتستفيد منها الدولة المستخدمة لهذا الأسلوب

. مثال ذلك افتعال إسرائيل لأزمة الحدود مع سوريا ونشاط الفدائيين كمبرر لشن الحرب في عام ١٩٦٧م.

٣ -إشاعة الرعب والفوضى؛ وذلك من خلال استغلال عاطفة الخوف؛ لإرهاب الشعوب وإخضاعها من خلال استخدام الوسائل المختلفة لخلق حالة من الفوضى، يسهل عن طريقها السيطرة والتغلب عليها.

٤ -التأثير على معنويات العدو وتفتيت قواه العامة للوصول به إلى الإرهاب النفسي .

٥ -استخدامها للتمويه والتعمية كستار من الدخان لإخفاء حقيقة ما .

٦ -ترويج أنباء كاذبة وأخبار مشكوك في صحتها لأجل إضعاف الروح المعنوية .

٧ -استخدام الأساليب الحديثة لعلم النفس التي تخدم الشائعة للتأثير على نفسيات العدو ومعنوياته وإيراداته.

٨ -تدمير معنويات الجبهتين العسكرية والمدنية وإنهاكها وتحطيمها .

٩ -العمل على إضعاف القيم والعادات والتقاليد السائدة في المجتمعات كمقدمة لتحطيمها.

١٠ -العمل على إثارة البلبلة في نفوس وإضعاف ثقة الشعوب بنفسها.

مما سبق يتضح لنا بأن الحرب النفسية هي أكثر خطورة من الحرب العسكرية، لأنها تستخدم وسائل متعددة ، إذ توجه تأثيرها على أعصاب الناس ومعنوياتهم ووجدانهم ، وفوق ذلك كله فإنها تكون في الغالب مقنعة بحيث لا ينتبه الناس إلى أهدافها ، ومن ثم لايحطاطون لها؛ فأنت تدرك خطر القنابل والمدافع وتحمي نفسك منها . ولكن الحرب النفسية تتسلل إلى نفسك دون أن تدري. وكذلك فان جبهتها أكثر شمولاً واتساعاً من الحرب العسكرية، لأنها تهاجم المدنيين والعسكريين على حد سواء.

الفصل الرابع

خصائص الجيل الرابع من الحروب

تتميز حروب الجيل الرابع بعدم التناظر أو اللاتماثل بين الأطراف المقاتلة في إطارها ، بمعني وجود تباين شاسع في القدرات والمنطلقات والأهداف بين الأطراف، فهي حروب بين جيوش وبين جماعات مقاتلة من غير الدول .هذه الجماعات المقاتلة قد تكون عابرة للقوميات، والأغلب ألا تكون ذات انتماءات قومية أصلاً؛ فهي لا تُعرف نفسها من خلال الانتماء لدولة معينة ، ولكن بكونها جزءا من تكوينات تقوم علي "أساس فكري أو أيديولوجي معين يوظف أساليب جماعات التمرد وحروب العصابات" (٧٢).

ومن المعتاد أن تضم هذه الجماعات المقاتلة تكوينات من المتطوعين المدنيين ممن يحملون جنسية الدولة الخصم نفسها .كما أن المقاتلين هنا لا يلتزمون بزي رسمي ، ويصعب تمييزهم في كثير من الأحيان من المدنيين، كما يصعب تمييزهم عن بعضهم البعض من حيث الهرمية،

وبشكل عام لا توجد قيادات ثابتة لهذه التكوينات المقاتلة ، وإنما هناك سيولة ومرونة كبيرة تعوق الخصم عن استهداف رموز هذه الجماعات. وتستخدم هذه الجماعات وسائل غير تقليدية في القتال ، ولا تلتزم في إطاره بالاتفاقيات أو الأعراف المعمول بها بين الدول والجيوش المتحاربة؛ إذ تعمد إلي استخدام كافة أشكال الضغط علي الخصم، من خلال "ضرب أهدافه السياسية والاقتصادية والهجوم المباشر علي رموزه الثقافية (علي اعتبار أن الثقافة هي الوقود الحقيقي الذي يغذي هذا النوع من الحروب)، كما قد تستهدف المدنيين (لإرغامهم علي ممارسة ضغط علي حكوماتهم لوقف القتال)، وذلك علي امتداد المجتمع الذي يصبح بأكمله ساحة للمعارك" (73).

وتتميز الجماعات المهاجمة في إطار هذه الحرب بأنها ليست ذات كثافة عددية ، ولكنها تكتيكية وسريعة، الأمر الذي يضمن لها القدرة علي المناورة والتحرك بسهولة وسرعة علي الأرض، كما يحرم خصومها من الاستفادة من

زيادتهم العددية وقدرتهم علي الحشد ، "ولا تعتمد هذه الجماعات علي أي دعم (إمداد وتموين) مركزي، وإنما علي الإمدادات اللوجستية التي يمكنها حملها حتي ساحة المعارك" (74).

ويتضمن هذا النوع من الحروب استخداماً واسعاً لأساليب الحرب النفسية والتلاعب الإعلامي والتدخل المعلوماتي، لتوجيه الرأي العام في اتجاهات بعينها ، ولهذا افترض البعض أن "شاشة التلفاز قد تكون أكثر تأثيراً من الوحدات المدرعة في إطار هذا النوع من الحروب" (75).

ومن ناحية المدي الزمني تعد حروب هذا الجيل طويلة المدي ، ومن ثم لا يمكن حسمها من خلال ضربات استباقية أو مركزة، لعدم وجود مراكز لقوة الخصم. وإذا كان الاستراتيجي الشهير" كلاوزفيتز" قد افترض أن الطرف المهاجم عليه ان يرد باستهداف مراكز قوة الخصم، لإخراجه عن توازنه وكسر شوكته، فإن

المشكلة في حروب الجيل الرابع أنها "مصممة بحيث تحرم الطرف المهاجم من أن يجد مركزاً يستهدفه بضرياته المضادة" (76).

كما أن من أهم سمات حروب الجيل الرابع ، وأوجه الاتفاق والاختلاف بينها وبين أجيال الحروب السابقة ، عسكرياً، وسياسياً، وإعلامياً، واجتماعياً:

وأما البعد العسكري ، ويعنى انتشار القوات المتحاربة بمعزل عن الحدود السياسية والجغرافية للدول المجاورة ، والهدف الرئيس من العمل العسكري هو القضاء على إرادة الشعب وإحكام السيطرة على نظامه السياسي ، ويُعد "الإرهاب هو الوسيلة الأكثر شيوعاً في تحقيق ذلك الهدف ، إضافة إلى إنهاك العدو عسكرياً ونفسياً، وليس القضاء عليه" (77).

لذلك لم يعد الانتصار العسكري في ظل حروب الجيل الرابع هو الانتصار المادي الذي يسعى إلى القضاء على

العدو، بل أصبح المنتصر هو من يحقق أعلى نسبة من الهزيمة النفسية للطرف الآخر حتى وإن هُزم عسكريا ، وتحول الهدف الرئيس ليصبح هزيمة الإرادة الشعبية ، وإفقاد الشعوب الثقة في حكوماتها ، وتحول دور الإعلام من رفع تقارير إخبارية عن الحرب عن التأثير عن مجرياتها ، وظهر "الإرهاب كتكتيك أساسي بهدف إهلاك الخصم الأقوي والأكثر، وبرزت المنظمات غير الحكومية كفاعل رئيس على الأحداث، فالاستغلال الجيد لهذه المنظمات قد يحدد المنتصر في الحرب" (78).

ومن سمات حروب الجيل الرابع أيضاً أنها "تعتمد على حروب المعلومات التى تعتمد على التقدم التكنولوجى، وتستخدم القوة الذكية (أسلحة ذهنية) Smart Power ؛ وقد تزامن ظهورها مع تحول جذري عالمي من المجتمع الصناعي إلى المجتمع القائم على المعلومات. ولاشك في أن تحولات مجتمعية بهذا الحجم لم تكن لتمر دون إحداث تغيير جوهري في استراتيجيات الحروب، ومن ثم

كان بديهياً أن يظهر جيل جديد من الحروب وهو الجيل الرابع يختلف تماما عن الحرب النظامية التي كانت تدار من ذي قبل" (79) .

أما من حيث البعد الاجتماعي حيث تتدهور فكرة الدولة في مقابل بروز حالة من الولاء لثقافات بعينها ، عابرة للدول في العالم بأسره ، وغالبا ما يرافق ذلك إضعاف التجانس المجتمعي ، ويتفاقم الأمر في الدول ذات المجتمعات المفتوحة .

وأما من حيث البعد السياسي ، فقد تم إنهاء احتكار الدولة للحرب ، وتستغل المسؤولية للدول تجاه مواطنيها لتطوير استراتيجيات لإجبار الدول على انتهاج سلوك سياسي بعينه، وشجعت على إعادة ظهور الكيانات من غير الدول، كالقبائل والجماعات العرقية وغيرها ، التى تعد محركاً رئيسياً في تشكيل روح الولاء والانتماء بين مجموعة من الأشخاص، بغض النظر عن الاختلافات

بينهم، كما اتضح الدور الحاسم الذي يمكن أن تلعبه الحملات الدعائية والضغط النفسي في التأثير على التوجهات العامة لصانعي القرار، ومن بإمكانه التأثير عليهم .

وقد طرأ تغيراً كبيراً على المجتمعات ذاتها ، حيث "أدت العولمة وتكنولوجيا الاتصالات إلى نزوع الأفراد لنقل ولائهم من الدولة إلى الولاء لقضايا معينة، وصار العديد منهم أكثر ارتباطاً بما تتم إثارته على شبكة الإنترنت، على حساب الاهتمام بالمشاكل الحقيقية لمجتمعاتهم، ويتمثل مصدر التهديد هنا ، في أن بعضهم أصبح مستعداً للتطرف واستخدام العنف كوسيلة للتعبير عن الرأي، حتى دون التقدير المنطقي لعواقب أفعاله" (80).

كما طرأ تحولاً في مضمون وطريقة إرسال المعلومات، حيث استطاعت الجماعات الإرهابية الاستفادة

منها، من الدعاية الشاملة إلى حملات إعلامية مدروسة تستخدم أنماطاً جديدة من أدوات الاتصال كوسائل الاتصال الاجتماعي، والهواتف النقالة، والإنترنت، بغرض "التجنيد والتدريب والاتصال والتعليم والسيطرة على الأعضاء الجدد، أي حدث تغير في نمط التجنيد من التعبئة الجماهيرية إلى تعبئة أفراد مستهدفين" (81).

وبناءً علي ذلك يصف "ماركس مارينورج"، أن أهداف حروب الجيل الرابع تقوم علي النحو التالي (82) :

١ - زعزعة استقرار الدول، وشغل جهاز الأمن بها، وحرمان القائمين عليه من فرص التمتع بالراحة ، وإزكاء الصراعات بين أهل الدولة المستهدفة.

٢ - إزالة الدولة وجعل مقدراتها غير مستغلة، وجعل مواردها معطلة، وجعل مكاسبها خسائر، وتحويل مصدر قوتها إلي ضعف، وجعل أنظمتها هامشية، وتحويلها إلي دولة رخوة فاشلة عاجزة عن كل شئ .

٣ - تمزيق الدولة وتفتيتها وجعلها دويلات بعد تقسيم شعبها ، وصنع حروب ثأرية بين مواطنيها ، وتقسيم شعبها إلي طوائف وفئات ، وجعل كل فئة تقاتل الفئة الأخرى دون انتصار ، بل هزائم مؤكدة.

٤ - سرقة أموال الشعب والفوز بغنيمة المعارك، وغنيمة الإفساد ، وإحداث حالة من الخوف والهلع والرعب، واستخدام الإعلام المدار بشكل مكثف لإحداث هذا النوع من الخلل.

إن مجمل هذه التحولات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، يشير إلى بروز أفراد وجماعات صغيرة تزداد فاعليتهم، بسبب تطور أدوات الاتصالات، ويربطهم معاً دفاعاً عن قضية معينة بدلاً من الولاء لدولتهم. ومع توظيفهم للتكنولوجيا الحديثة، فإنهم قادرون على توليد قوة مدمرة كانت تحتاج في السابق إلى موارد دولة قومية.

كما تتسم كذلك حروب الجيل الرابع بسمات عدة منها (83):

أ- **محورية الأفكار والأيديولوجيات**: حيث تمثل الأفكار محوراً مهماً في شن حروب الجيل الرابع وتحديد معايير الهزيمة والنصر فيها. فالثقافة هي الهدف وهي محور التخطيط لهذه الحروب، التي تتمركز تخطيطياً حول الهجوم على ثقافة العدو، وتدميرها أو إعادة تشكيلها وصياغتها أو توجيهها وتدمير منظومة القيم الثقافية والروحية لدى العدو، بحيث تنهار الروح المعنوية والقيم النفسية الداعمة للمجتمع، وبالتالي يسهل اختراقه أو دفعه إلى الانهيار المادي أو المعنوي، واقعياً أو افتراضياً.

ب - **الطبيعة المعقدة للحرب**: ليس من السهل إدراك طبيعة حروب الجيل الرابع، فعلى سبيل المثال هي حروب غير تقليدية؛ أي ليس لها بدايات واضحة وتوقيتات زمنية محددة، وبالتالي تتداخل فيها المراحل، ويصعب فيها بناء

جدر وقائية أو اتخاذ مواقف دفاعية حصينة على المستوى الأيديولوجي والفكري الذي هو ساحة رئيسية لهذه الحروب. وبحكم هذا التعقيد فإن هذه النوعية من الحروب ذات طبيعة زمنية ممتدة، ويصعب تحديد أجندة زمنية لشنها وإنهائها، حيث تتوقف حسابات النصر والهزيمة فيها على بيئة الصراع ومقدرة العنصر البشري على حسم حرب الأفكار لمصلحته.

جـ ـ الاعتماد الكبير على المؤثرات النفسية والمعنوية والإعلامية: تلعب هذه المؤثرات الدور الأهم في مسارات الصراع في حروب الجيل الرابع، فبحكم اعتماد هذه الحروب على الأفكار، فإن البوابة التلقائية والساحة العملية للمناورات والاشتباكات والتفاعلات، تتمركز حول المؤثرات النفسية والمعنوية والإعلامية.

د ـ محورية العوامل الاقتصادية والسياسية والأمنية والعسكرية: على الرغم من أن الثقافة هي جوهر الصراع في

حروب الجيل الرابع، فإن نجاح هذه الحروب يتطلب بشكل موازٍ توافر قدر فاعل من التحركات والضغوط والمؤثرات على الصعد الاقتصادية والسياسية والأمنية والعسكرية كي تساعد في تفعيل خطط التدمير الثقافية التي تستهدف قيم المجتمعات والدول والشعوب.

هـ - **بروز أنماط متطورة من التفاعلات**: برغم أن هناك العديد من الخطط والأنماط التي شهدها العالم منذ عقود مضت، للإضراب، أو الاعتصام، أو العصيان، أو غير ذلك من مظاهر التحرك الداخلي ضد الدول، فإن مثل هذه الأنماط لم تعمل وفق حراك عشوائي قائم على الاجتهادات الفردية، بل باتت تدرس ويتم التدريب عليها في منظمات دولية ودول كبرى، ترعى أفراداً وجماعات محلية منتشرة في دول شتى من العالم، لاستخدام هؤلاء الأفراد، والجماعات، وتوظيف قدراتهم ونشاطهم، في إحداث التغيير الداخلي في أي دولة مستهدفة. وهذا المجال تحديداً يجسد فكرة التخطيط البعيد الأمد في مثل هذه الحروب، حيث

تظهر خطورة بعض الممارسات الفردية بعد سنوات عدة، عندما تلتئم وتصطف ضمن منظومات عمل جماعية محكمة تشكل بؤرة انطلاق لاستهداف استقرار الدول والمجتمعات وإشعال الفتن والمؤامرات.

وفيما يتعلق بأساليب وأدوات حروب الجيل الرابع، فإن الإرهاب هو أحد الأدوات الرئيسية، وهو يختلف عن الإرهاب الذى شهدته المنطقة فى عقود سابقة، فى أنه يتم التمويل غير المباشر، لإنشاء قاعدة إرهابية غير وطنية، أو متعددة الجنسيات داخل الدولة، بحجج دينية، أو عرقية، أو مطالب تاريخية، والأداة التالية هى: التظاهرات بحجة السلمية للمطالبة بحقوق مشروعة يتعاطف معها الناس وبعض وسائل الإعلام و المنظمات الحقوقية، ثم يتم فى أثناء المظاهرة الاعتداء على المنشآت العامة والخاصة، وقتل وإصابة بعض الأشخاص، ثم إلصاق التهمة بالجيش والشرطة، لزرع التوتر والكراهية بينهما وبين المواطنين، وفى حالة وجود هدوء نسبى بعد فترة، يتم البحث عن

أسباب أخرى موضوعية تستند على بعض المشكلات الموجودة بالفعل، لإعادة الكرة وعمل مظاهرة جديدة (84).

ومن أحد الأساليب المهمة لحروب الجيل الرابع الحرب النفسية المتطورة للغاية من خلال الإعلام والتلاعب النفسي، واستخدام محطات فضائية تكذب وتقوم بتزوير الصور والحقائق (تمويل المحطات أو الإعلاميين أو أصحاب المحطات) ، ويستخدم فيها وسائل الإعلام التقليدية والجديدة (مواقع التواصل الاجتماعي) ، والتى تهدف إلى تضخيم التحديات والتهديدات التى تواجه الدولة المستهدفة، وزرع عدم الثقة فى نفوس المواطنين، لإقناعهم بعدم قدرتهم على مواجهة هذه التحديات والتهديدات، وقطع التواصل بين المواطنين وقيادتهم على كافة المستويات، بالتشكيك المستمر فى أدائهم، وأى إنجازات تم تحقيقها. وتستخدم أيضاً الأفلام والمسلسلات الجاذبة، لتغيير أفكار وعادات وتقاليد الشعوب، تمهيداً لتغيير

الهوية، والعمل على اتساع الخلافات بين الطوائف المختلفة، على أساس ديني، أو عرقى، مما يعمل على وجود نزعة التمرد للأقليات العرقية، أو الدينية، وضرب طبقات المجتمع بعضها البعض (فلا توجد دولة فى العالم تتكون من عرق واحد أو ديانة واحدة منذ بدء الخليقة حتى الآن).

وأيضاً من بينها تطوير التكتيكات لاختراق وتجنيد التنظيمات داخل الدولة المستهدفة، والعمل باسمها وبغيرها من التنظيمات التي تأخذ الطابع المتطرف، واستخدام مرتزقة مدربين، لتحقيق مخططات في الدول المستهدفة، بالإضافة إلي استخدام تكتيكات حروب العصابات، وعمل تفجيرات ممولة بطريق مباشر أو غير مباشر، من الأساليب المستخدمة أيضاً الضغوط (السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية .. الخ) ، مثل التلويح بقطع المساعدات، أو التهديدات الحربية ... الخ (85).

ومن جهة أخري فإن منظمات المجتمع المدني تعتبر من أهم نقاط الاختراق للمجتمع؛ خاصة أنه يتم الدخول إليها تحت مسمى الديمقراطية وحقوق الإنسان، وهى مسميات لا يختلف عليها دين، أو قانون، أو منطق (فبدايات الموضوع صحيحة تماما) ، ولكن يتم من خلالها تحليل شرائح المجتمع، ثم التبنى المتدرج لقضايا بعينها ، وتضخيمها تدريجياً فى داخل الدولة المستهدفة، وعلى المستوى الإقليمي والدولى . وتبنى رموز المعارضة داخلياً وخارجياً ، وأخيراً استخدام العملاء في الدول المخترقة، وتسليط الأضواء عليهم، ومنحهم الجوائز العالمية، كإحدى الأدوات التى تمنحهم حصانة أدبية للتحرك بحرية داخل المجتمع والإقليم، لإقناع المواطنين بأفكارهم .

إذن الأسلوب المتبع في حروب الجيل الرابع يتمثل في الإرهاب والتظاهرات بحجة السلمية ، ثم الاعتداء على المنشآت العامة والخاصة (بداية المظاهرات يكون الناس متعاطفين مع المطالب لكنها تتحول إلى العنف)، ثم

التمويل غير المباشر لإنشاء قاعدة إرهابية بحجج دينية، وعرقية، أو مطالب تاريخية ، ثم استخدام الحرب النفسية المتطورة، وذلك من خلال الأعلام، والتلاعب النفسي، واستخدام محطات فضائية تكذب وتقوم بتزوير الصور والحقائق (تمويل المحطات أو الإعلاميين أو أصحاب المحطات وصفحات التواصل الاجتماعي). ثم اختراق وتجنيد التنظيمات داخل الدولة المستهدفة والعمل باسمها . ثم استخدام تكتيكات حرب العصابات وعمل تفجيرات ممولة بطريق مباشر أو غير مباشر، ثم التمرد للأقليات العرقية، أو الدينية، وضرب طبقات المجتمع بعضها ببعض .ثم استخدام كل الضغوط المتاحة سياسياً / اقتصادياً / اجتماعياً ، ثم استخدام منظمات المجتمع المدنى والمعارضة والعمليات الاستخبارية. وكذلك استخدام العملاء والخونة فى الدولة المخترقة، وتسليط الأضواء عليهم ومنحهم الجوائز العالمية .

ومن جهة أخري فإن حروب الجيل الرابع غير مكلفة على الإطلاق، وبالتالي من أدواتها ، خلق مجموعات إرهابية، واستخدام المظاهرات في أماكن متفرقة بحجة السلمية، ثم التحول إلى ضرب المنشآت العامة والخاصة ، فضلاً عن استخدام منظمات مجتمع مدني أو منظمات حقوق الإنسان، بالإضافة إلى الحروب النفسية من خلال الشائعات وبثها ، ورغم أن هناك العديد من منظمات المجتمع المدني التي تعمل للصالح العام ، إلا أن المنظمات الأجنبية تقوم باستقطابهم وضخ أموال طائلة لهم من أجل تحقيق أهدافها بأساليب كثيرة وبشكل غير مباشر حتى لمن يعمل في تلك المنظمات ، وبالتالي نحن أمام عدو خفي، ولن نستطيع بصورة رسمية في هذا النوع من الحروب اتهام دولة بعينها، ولكن قد نستنتج من هو المستفيد فلا تستطيع دولة ، أن تذهب لمنظمة الأمم المتحدة أو لأية منظمة دولية من أجل الشكوى لأن العدو غير ظاهر، وهذه مشكلة، فضلاً عن استخدام وسائل الإعلام في الحرب النفسية أو

مـن خـلال شـبكات التواصـل الاجتمـاعي الـتي تجعـل مـن الشائعة قصة محكمة التأليف، وهي تستهدف أموراً ضد الدولة، مستخدمة جماعات مرتزقة، وتعتمد على التقليل والتهويـل، وتقـوم بـزرعهم لتكـوين قـادة داخـل الدولـة ويكونـون نقطـة انطـلاق يمكـن أن تسـتخدمها بـأي وقـت تشاء.

وأما إعلامياً فالجيل الرابع من الحروب مفهوم ارتبط في نشأته وتطوره بتطور الإعلام وشيوع تطبيقات النظام الدولي الجديد ، بل ويعود إلي الحروب، عندما أدرك بعض القادة العسكريين أن جنودهم يقاتلون قتالاً شرشاً تارة، ويتبلدون إلـي حـد الجـبن تـارة أخـري، وكـذلك جنـود العـدو الـذين يستبسـلون في الـدفاع عـن مواضـعهم تـارة، وينسـحبون متقهقرين تارة أخري، حتي عزا ذلك التناقض الانفعالي إلي العـالم النفسـي، وتوجهـوا إلـي المختصـين لدراسـته وتطـوير وسائل تقويته عندهم ، وإضعافه عند خصومهم، فكانت إجراءاتهم العملية في هذا المجال، شملت العديد من الوسائل

والأدوات وضعت تحت عنوان الحرب النفسية التي عُرفت فيما بعد الحرب العالمية الثانية بالاستخدام المخطط من جانب الدولة في وقت الحرب، أو في وقت الطوارئ لإجراءات عاتية، بقصد التأثير علي آراء وعواطف وسلوك جماعات أجنبية عدائية، أو محايدة، أو صديقة، بطريقة تعبر عن تحقيق سياسة الدولة وأهدافها . وعرفت بعد ذلك بقليل بأنها حملة شاملة تستعمل كل الأدوات المتوفرة وكل الأجهزة، للتأثير في عقول جماعة محددة بهدف تدمير مواقف معينة ، وإحلال مواقف أخري تؤدي إلي سلوكية تتفق مع مصالح الطرف الذي يشن هذه الحملة.

لكن تلك التعريفات تغيرت مع تطور الأحداث والتقنية والنضج الفكري في مجالها لتكون الاستخدام المنظم لمعطيات علم النفس التطبيقية في تحليل وإدارة الصراع .

التصور المذكور لحروب الجيل الرابع واعتمادها علي تحليل وإدارة الصراع أعطاها أهمية بالغة ودفع الولايات

المتحدة في النظام الدولي الجديد علي وجه الخصوص إلي استخدامها سلاحاً، كأحد أفضل الأسلحة المؤثرة لاعتبارات أهمها (86):

أ - إنه سلاح غير مباشر يعتمد علي المعرفة النفسية وتطبيقاتها في التعامل مع الوعي الإنساني، تلك المعرفة التي قطعت فيها تلك الدول أشواطاً بعيدة المدي وتمرست في استخداماتها بمستوي يحقق لها التفوق المطلوب في العديد من بقاع العالم.

ب - إن الولايات المتحدة في النظام العالمي الجديد امتلكت السلطات التشريعية والتنفيذية العالمية معاً، وبموجبها حرمت علي سبيل المثال، التشويش علي الإذاعات المرئية والمسموعة، ومنعت الرقابة علي المطبوعات، والرقائق السينمائية، وبقية وسائل الاتصال، وغيرها من ضوابط وقوانين، مهدت لفتح الأبواب علي مصاريعها، أمام

أسلحتهم النفسية دون أى مقاومة ، أو بقليل منها في أحسن الأحوال .

ج - إن الابتعاد جهد الإمكان عن التدخل المباشر باستخدام الجيوش، التي ارتبطت حركتها بالاستعمار التقليدي المقيت، أمر يحتاجه أولئك المعنيون في الوقت الحاضر لتجميل صورتهم التي تشوهت في أكثر مكان علي الكرة الأرضية ، إلا أن هذا الاتجاه يعني تقييداً لحركتهم، وخسارة لمصالحهم الآنية والمستقبلية، لا يمكن قبوله تماماً ، وكتعويض لذلك أُفُسح المجال واسعاً لاستخدام السلاح النفسي الذي يلبي الطموحات دون أية مشاكل جانبية.

د - أمريكا والدول المنتفذة الأخري هي دول رأسمالية، يدير معظم مفاصل القرار فيها ، أصحاب رؤوس الأموال، وفق نظام يضع في الحسبان الكلف المادية ومؤشرات الربح والخسارة لكل الفعاليات وبينها العسكرية، وبمقارنة

بسيطة بين ما تتطلبه الحرب التقليدية أو النووية من مصاريف ضخمة ، وماتحتاجه الحرب النفسية من أموال وجهود معقولة، نجد أن ميزان المفاضلة تميل كفته لصالح الأخيرة وبفارق كبير جداً.

هـ - يمتاز السلاح النفسي عن غيره من الأسلحة التقليدية كون إجراءاته متعددة ومتغيرة تتلون باستمرار تبعاً للظروف والمواقف، كذلك يتوجه إلي أهداف ليست معلنة واتجاهاته علي وجه العموم غير مباشرة. وسلاح بهذه الخصائص يكتسب قوة التأثير غير المباشرة دون مقاومة المستهدفين أو ممانعة من قبل المجاورين في المنطقة.

و - إن اللجوء إلي استخدام الجيوش في الحروب عبر كل الأزمنة يتمحور حول فرض إرادة أحد أطراف الصراع بالقوة، عندما تعجز الوسائل الأخرى عن فرضها ، وهذه نتائج لا يدوم أمدها طويلاً، لأنها وبقدر قوة الصدمة وقسوة الشروط التي يفرضها المنتصر ستخلق مشاعر للعدوان

ويتشـكل سـلوك للمقاومـة عنـد مـواطني الطـرف المقابـل، يدفعهم إلي تكثيف جهودهم، لإزالة تلك النتائج بأسرع ما يمكن . أما السلاح النفسي الذي لا يتوقف تأثيره عند حالة معينـة يمتـاز بالاسـتمرارية وبسـهولة التكـرار والمرونـة، في اختيـار الوقـت والوسـيلة والمنـاورة بالجهـد المتيسـر، وهـي مبادئ توفر له فرصاً جيدة لإدامة زخم التأثير بدرجات أشد وفترات زمنية أطول.

ز - تمثـل الحـرب الاعتياديـة مواجهـة سـاخنة بـين أطـراف الصراع يتلقي العسكريون فيها قوة الصدمة التي قد تمتد آثارهـا إلـي المـدنيين في العمـق الاسـتراتيجي تبعـاً لشـدتها واتسـاع رقعتهـا (شموليتهـا) وخلالهـا يحـتفظ بهـا جهـد الإمكان، بينما تختفي الحدود والفواصل في استخدامات السـلاح النفسـي (إلا إذا أُرِيـد لـه ذلـك) وسـاحته علـي وجـه العمـوم شـاملة لكـل المجتمـع المسـتهدف . وبمعـني آخـر إن تأثيراتـه السـلبية لا تقتصـر علـي جبهـة القتـال ، والعـبء

الأكبر فيها لا يقع علي العسكريين بمفردهم وهو ما تسعي أطراف الصراع إلي تحقيقه في الوقت الحاضر.

ح - إن سياقات تطبيق الحرب النفسية في كثير من الأحيان تعتمد علي التعامل مع ميول الإنسان وحاجاته ورغباته، ومن ثم غرائزه بأساليب إشباع مرغوب ، أو تجنب منفر، وهي معطيات تستهوي في معظمها المثقفين وتمهد الطريق أمام السلاح النفسي للوصول إلي الهدف المطلوب في الزمان والمكان المحددين.

خلاصة القول فإن حروب الجيل الرابع مختلفة تماماً عما كان عليه من قبل ، فإذا كانت أنواع أجيال الحروب الثلاثة السابقة، تستهدف الدول وتتصدى لها جيوش هذه الدول، إلا أن حروب الجيل الرابع تستهدف شعوب هذه الدول، وكل مؤسسات الدولة بالكامل، بما فيها القطاع المدني، والهدف الرئيس لحروب الجيل الرابع، هو الدولة بالكامل من خلال تخريب الاقتصاد والبنية التحتية ،

وكل مقومات الحياة عليها وحتى اجتماعياً وثقافياً ، ثم تأتي المرحلة التالية ، وهي خلق واقع جديد يحقق مطالب الدولة المعتدية ، والتي تستخدم حروب الجيل الرابع ، والتي خططت لها منذ سنوات ، ولكن كل هذا يحدث ببطء حتى لا تشعر به الدولة ولا المواطنون، علماً بأن أدوات ومعدات هذا الجيل تختلف عن الأجيال الأخرى؛ حيث لن نشاهد الأسلحة الصلبة العنيفة المكلفة للدولة المعتدية والتي تتكلف أموالاً باهظة فضلاً عن موارد نفطية وغير ذلك .

الهوامش

(١) د. شريف عبد الرحمن : حروب الجيل الرابع بين الرواية الأمريكية والرواية المصرية، ص ٣٣-٣٤.

(2) المرجع نفسه ، ص ٣٤.

(3) وليد حسنين: حروب الجيل الرابع والشرق الأوسط الجديد، العملاء والضحايا، مجلة الإذاعة والتلفزيون ، ٢٥ أغسطس ، علي الرابط:

http://maspiro.net/files/9293-2013-09-17-02-11031.html.

(4) بدأ عرض الجزء الأول منها الأثنين الموافق ٢٥ نوفمبر ٢٠١٣، والحلقات متاحة علي الرابط:

https://www.youtube.com/channel/UColBpZkF8IHhAtbuMcMGL-A

(5) نفس المرجع.

(6) نفس المرجع.

(7) نفس المرجع.

(8) نفس المرجع.

(9) نفس المرجع.

(10) نفس المرجع.

(11) نفس المرجع.

(12) نفس المرجع.

(13) نفس المرجع.

(14) د. شريف عبد الرحمن : المرجع نفسه ، ص ١٩.

(15) المرجع نفسه ، ص ٢٠ .

(16) المرجع نفسه ، ص ٢١.

(17) حسين خلف موسى : الجيل الرابع من الحروب بين التنظير والتطبيق العملى فى دول العالم العربى، المركز الديمقراطى العربى، ٢٠١٥، ص ١١

(18) سونيا بديع مكارم : دور القوة الناعمة في السياسة الخارجية الأمريكية تجاه منطقة الشرق الأوسط ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية العلوم السياسية ، جامعة دمشق ، سوريا ، ٢٠٠٩-٢٠١٠ م، ص١.

(١٩) المرجع نفسه ، ص ٢.

(٢٠) المرجع نفسه ، ص ٢.

(٢١) المرجع نفسه ، ص ٢-٣.

(٢٢) د. محمد طي : الحرب الناعمة مقومات الهيمنة وإشكاليات الممانعة ، مركز قيم للدراسات ، بيروت ، لبنان، ٢٠١١، ص ٦٦.

(٢٣) المرجع نفسه ، ص ٦٦-٦٧.

(٢٤) جوزف س. ناي، القوة الناعمة، ترجمة محمد توفيق البجيرمي، دار العبيكان ٢٠٠٧، ص١٢، ٢٠، ٢٧.

(٢٥) المرجع نفسه ، ص ٢٥.

(٢٦) المرجع نفسه ، ص٢٧.

(٢٧) المرجع نفسه ، ص ٣٣.

(٢٨) جوزف س. ناي، القوة الناعمة، ترجمة محمد توفيق البجيرمي، دار العبيكان ٢٠٠٧، ص ١٥١.

(٢٩) المرجع نفسه ، ص ٢١.

(٣٠) المرجع نفسه ، ص ١٤.

(٣١) المرجع نفسه ، ص ١٦.

(٣٢) المرجع نفسه ، ص ٥٣.

(33) حسن محمد الزين :الربيع العربي آخر عمليات الشرق الأوسط الكبير دار القلم الجدي ، بيروت ، لبنان ، ٢٠١٣، ص ١٠٤.

(34) بشار شختارة : حروب ما بعد الحداثة ، ضمن طلقة تنوير : حروب الجيل الرابع، المجلة الثقافية للائحة القومي العربي ، عدد ٣٢ ، كانون الأول ، ٢٠١٧.

(35) المرجع نفسه .

(36) المرجع نفسه .

(٣٧) المرجع نفسه .

(٣٨) المرجع نفسه .

(٣٩) المرجع نفسه .

(٤٠) ماكس ماينورج: حروب الجيل الرابع ، محاضرة المؤتمر السنوى لأمن نصف الأرض الغربي ، معهد الأمن القومى الإسرائيلي ، بتاريخ ١٨ أغسطس ٢٠١٢ ، أنظر نص المحاضرة علي اليوتيوب من خلال الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=yHV8Fu6gdqU

(٤١) المصدر نفسه.

(٤٢) المصدر نفسه.

(٤٣) المصدر نفسه.

(٤٤) المصدر نفسه.

(٤٥) المصدر نفسه.

(٤٦) المصدر نفسه.

(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) المصدر نفسه.

(٤٩) المصدر نفسه.

(٥٠) عماد المديفر : الرأي العام وحروب الجيل الرابع / صحيفة الرأي العام بتاريخ ٢٥ فبراير ٢٠١٥.

(٥١) المرجع نفسه .

(٥٢) هاري بوتر: بطل روايات السيدة ج.ك رولينج ، فقد شغف الأطفال بشخصية بطل هذه

الحكاية الحديثة وبمغامراته ، وهو طفل يتيم يعاني من سوء المعاملة والقلق والاكتئاب ويقاوم مختلف الصدمات، يحاول البقاء في عالم البالغين من العامة الذين فقدوا حس السحر الذي يتميز به الأطفال. وهو في محاولته هذه يصطدم بالشخصية التي تمثل له الأنا الآخر أي وجهه المظلم، ملك الظلمات، ويحاربه بمساعدة أصدقائه والأستاذ دمبلدور، وكذلك بمساعدة صور والديه على وجه الخصوص وهي صور تتبدى تدريجياً في مختلف ظواهر الاستحواذ التي يمر بها هاري. وانطلاقاً من قراءة دقيقة لمغامرات هاري بوتر، يعرض المؤلف مقاربة لعلم النفس المرضي في ما يتعلق بحداد الطفل والصدمة وسوء المعاملة وكذلك بآليات نفسية أكثر دقة كآلية الإخفاء أو الاستحضار: أنظر كتاب ج.ك.رولينج : هاري بوتر حجر الفلاسفة ، ترجمة سحر جبر محمود، مكتبة مصر ، القاهرة ، ٢٠٠٢، ص٣-٥.

(٥٣) أمل عبد الله الهدابي :الإعلام وحروب الجيل الرابع ، صحيفة الاتحاد ٢٨ أبريل ٢٠١٤.

(٥٤) المرجع نفسه .

(٥٥) المرجع نفسه .

(56) معتــز سـيد عبــد الله: الحــرب النفســية والشائعات، القاهرة ، دار غريب ،القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٢.

(57) رمـزي المنيـاوي :الحـرب النفسـية والطـابور الخـامس ـفـن تحطـيم العـدو دون حـرب وإنـزال الهزيمة به دون قتـال ، دار الكتـاب العربـي ، دمشق ـ القاهرة ، ٢٠١٠،ص٥.

(58) عـامر حسـن فيـاض: مقدمـة منهجيـة فـي إشـكالية علاقـة الـرأي العـام بالدعايـة والحـرب النفسـية، مجلـة البحـوث الإعلاميـة ، العـدد ٢٣/٢٥، ٢٤ـ٣٢.

(59) رمزي المنياوي : المرجع نفسه ، ص٤٨.

(60) Scott-Smith، Giles: Confronting Peaceful Co-Existence : Psychological Warfare & the role of Interlock،1962-1973، Cold War History.Vol7.No.1،19-43.

(61) رمزي المنياوي : المرجع نفسه ، ص٥.

(62) المرجع نفسه ، ص١٧.

(63) المرجع نفسه ، ص١٨.

(64) المرجع نفسه ، ص٤٠.

(65) المرجع نفسه ، ص٤٠.

(66) المرجع نفسه ، ص٤١.

(67) المرجع نفسه ، ص٤١.

(68) بن قدور إيمان: الوجه الآخر للعولمة" الربيع العربي أنموذجا"،مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، كلية : الآداب واللغات الأجنبية، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان،٢٠١٤ ،ص ٧١.

(69) المرجع نفسه ، ص ٧٢.

(70) المرجع نفسه ، ص ٧٣.

(71) د. عبد الفتاح عبد الغني الهمص و د. فايز كمال شلدان: الأبعاد النفسية والاجتماعية في ترويج الإشاعات عبر وسائل الإعلام وسبل علاجها من منظور إسلامي، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد الثامن عشر، العدد الثاني، يونيو ٢٠١٠،ص ١٥٦؛وأنظر أيضا : عبدالوهاب كحيل : الحرب النفسية ضد الإسلام، عالم الكتب: بيروت، (د.ت)،ص١١-١٢.

(72) د. شريف عبد الرحمن : حروب الجيل الرابع بين الرواية الأمريكية والرواية المصرية، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، ٢٠١٦، ص ٢٦.

(73) المرجع نفسه ، ص ٢٧.

(74) المرجع نفسه ، ص ٢٧٦.

(75) المرجع نفسه ، ص ٢٧-٢٨.

(76) المرجع نفسه ، ص ٢٨.

(77) مجدي كامل :حروب الجيل الرابع – الحرب بالوكالة ، ط١، دار الكتاب العربي ، دمشق – القاهرة، ٢٠١٦، ص ٢٧.

(78) المرجع نفسه ، ص ٢٨.

(79) المرجع نفسه ، ص ٢٨.

(80) شادي عبد الوهاب : التفجير من الداخل :الملامح الأساسية لدوامة العنف في حروب الجيل الخامس ، المجلد الأول ، العدد ١- أغسطس ٢٠١٤ ، ص١٢.

(81) المرجع نفسه ، ص١٢.

(82) المرجع نفسه ، ص١٢.

(83) محسن أحمد الخضيري : إدارة حروب الجيل الرابع :استخدام الاستراتيجية لحروب المخابرات، دار إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٦، ص٥٢.

(84) رمزي المنياوي :الحرب النفسية والطابور الخامس ، ص ٤٨.

(85) المرجع نفسه ، ص ٤٨.

(86) المرجع نفسه ، ص ٤٩-٥٠.